المقتبس

تاريخ الحضارة

مملكة الافرنج

الممالك البربرية

تأسيس الحكم الامبراطوري — لم يشأ ملوك البربر النازلين في الامبراطورية الرومانية ان يلغوا تلك المعاهد الامبراطورية ليبيدوها بل آثروا ان يخلفوا الاباطرة ويسنوا الشرائع ويصدروا الاحكام ويجبوا الضرائب وعلى الجملة ان يحكموا كما حكم الامبراطور. هكذا كان شأن ملوك البورغوند والويزغوت والوندال في القرن الخامس ولكن ملك الاوستروغوت في ايطاليا تيودوريك قد بلغ في احتذاء ذاك المثال ارقى درجاته في القرن السادس فكان له في رافون قصر بني على مثال قصر الامبراطور مع وزيره وصاحب حاشيته ووكيل خرجه وامناء ماله وكان له ولاة ومحافظون يجبون الضرائب اما القوط فظلوا محاربين ومنهم يتألف الجيش تحت اوامر الدوقات والكونتية منهم. وفي ظل هذا الحكم كان الايطاليون يعيشون بسلام كما كانوا على عهد الامبراطورية وانشأوا يصلحون المجاري والحمامات ودور التمثيل بل وشادوا ايضاً معالم جيدة مثل قصر رافون ومسلة رافن وبدأ التمثيل يعود الى ما كان عليه وتفتح مدارس البيان لايواء الطلاب وفي ذاك العهد نبغ بوئس آخر شعراء اللاتين القدماء (٤٧٠ — ٥٢٤) بيد ان القوط لم يحتملوا زمناً طويلاً هذا النظام فبعد موت تيودوريك كانت المليكة امالازونت تربي ابنها على يد اساتذة رومانيين فجاء رؤساء الجند يطلبون ان يربوا الطفل مع اترابه على الصيد وحمل السلاح الى نحو ما تقضي بذلك العادة البربرية.

حكومة الميروفنجيين — كان ملوك الافرنج في غاليا اكثر توحشاً من تيودوريك

وحاولوا مع ذلك ان يحكموا البلاد على الطريقة الرومانية فمنح امبراطور القسطنطينية لكلوفيس لقب قنصل وبطريق فظهر في مدينة تور لابساً رداء من الأرجوان وعلى رأسه التاج واقتسم اخلافه المملكة بينهم كما يقسم الملك ولكن كان لكل منهم قصره في البيعة التي كان يحكم فيها كلوفيس فيجلس على عرش من ذهب يحف به رجال الدولة بالقابهم الرومانية من قومس (كونت) الى صاحب الخاتم الى الحاجب وكان لبعضهم شعراء في قصورهم مثل الشاعر فنانتيوس فورتوناتوس الذي جاء من ايطاليا ونظم اكراماً لزواج برونهوت ابياتاً تخيل صنعة اظهر فيها كوبيدون (اله الحب) فرحاً بالزواج والزهرة (الهة الجمال) لتذكر ان برونهوت جميل مثلها وكان الملك شيلبريك نفسه ينظم ابياتاً بالالاتينية غاية في السقم والركاكة واخترع حروفاً جديدة مثل æ ، ö ، th ، [illegible] وكان يأمر الكونتية ان يمحوا بالشاف (الحفان) رقوق كتب التعليم في المدارس العامة ليعيدوا كتابتها بحروفه الجديدة وعنى بعلوم الدين ايضاً وبدعي ان العزة الالهية يجب ان يطلق عليها اسم واحد وقد قال لاحد الاساقفة هكذا اريدك ان تعتقد انت واخوانك من علماء الكنيسة . ولما اتاه من ارسلهم الى القسطنطينية بالاقمشة والزين واقونات الذهب عرض ما اتوه به في قصره وعرض في الوقت نفسه حوضاً عظيماً من الذهب الذي كان امر بصنعه فكان يريه للناظرين بالاعجاب قائلاً انا الذي استصنعته للزينة وللارفع من قدر أمة الافرنج ولعمري كم استصنع اذا عشت من الاعلاق والتحف

تخاذل الميروفنجيين — لم يستطع هؤلاء المقلدون في المدنية الحديثة ان يطول عهدهم فان الافرنج كانوت بلغوا من التوحش مبلغاً لم يقبلوا معه الى النظام الملكي فكان المحاربون يحترمون ملوكهم لانهم كانوا من العصر الميروفنجي ولكن خضوع موقت وكان المقاتلة اكثرهم عرامة يعيشون بالقرب من الملك وفي موكبه ويسميهم الملك رجاله وكثيراً مايكون هؤلاء اكثر سلطة من الملك . وفي سنة ٥٣٤ بينما كان الملكان شيلدبر وكوتير ذاهبين لتخريب بلاد البورغوند واراد تيري ان يبقى في مملكته جاءه رجاله يقولون له اذا لم تذهب الى بورغونديا مع اخوانك نتخلى عنكم ونلحق بهم . يريدون تيري ان يقودهم لتخريب اوفرنيا . وبعد حين قال احد المقاتلين للملك كونتران : نحن نعلم اين خبئت تلك الفأس الذهبية بدم اخوانك فانا نستطيع بها ان نقطع رأسك . وقد أخذ كونتران الفزع فقال ذات يوم في الكنيسة امام جمهور المؤمنين : اقسم عليكم

ايها الرجال والنساء الحاضرون هنا ان لا تقتلوني كما قتلتم اخوتي من قبل . وكان هؤلاء القاتلة الذين لا تدريب لهم يرضون ان يلحقوا بملوكهم في الحروب . لانهم كانوا يرجون في الحروب ان يعودوا وايديهم ملأى بالاسرى والغنائم ثم انهم كانوا لا يودون اداء الضرائب . وحاول بعض الملوك ان ينفذوا القانون الروماني الذي كانوا يرونه حقاً في جباية المال وقد عهد تيودبرت ملك الافرنج في اوستراسيا الى وزيره بارتينيوس ان ينظر امور الجباية فلما قضى نحبه انتقض الافرنج وذبحوا بارتينيوس في كنيسة تريف (٥٤٧) وبعد ثلاثين سنة امر شيلبريك بتنظيم قوائم بالاملاك وان تضرب ضريبة على الاراضي والعبيد وحربت مملكة شيلبريك في السنين التالية بما اصابها من الطوفان والحريق والاوبئة واوشك الملك ان يهلك بعد ان فقد ابنيه وكان القوم يذهبون الى ان الله غضب على شيلبريك للجناية التي ارتكبها بوضع الضرائب على الناس . ولما رأت الملكة فريدغوند اولادها قد مرضوا القت في النار سجلات ضرائب المدن التي كانت خاصة بها واخذت تراود زوجها ان يلقي سجلاته قالت له : وماذا يمنعك ان تحذو حذوي واعمل عملي حتى اذا فقدنا اولادنا لا عرة نخلص على الاقل من العقوبات الابدية (٥٨٠) . وفي سنة ٦١٤ اجتمع الاساقفة ورجال الملك واكرهوا الملك كلوتير ان ينشر امراً بالغاء جميع الضرائب .

الحقوق الرومانية وحقوق البربر — كان ملك الافرنج في القرن السابع ملكاً على جميع جرمانيا ولم يكن سكان هذه المملكة الواسعة أمة واحدة تتحد اجزاؤها بل كان لكل شعب لغته وعاداته ولم يكن في البلاد قانون واحد يخضع له الجميع على السواء وكان لكل انسان قانونه الشخصي خلال زهاء ثلاثة قرون (من القرن السادس الى التاسع) وقد احتفظ قدماء سكان الامبراطورية بالقانون الروماني اما البربر فكان كل واحد منهم يتبع عادة شعبه القديمة . وقد كتبت هذه العادات باللغة اللاتينية في عصور مختلفة فسميت قوانين البربر فنشأ بذلك قانون الافرنج (وهو يخص النساء واولادهن من كرمي الملك) وقانون ريبوير وقانون الالمان وقانون الفريزون وقانون البافاريين . وبالجملة كانت القوانين بقدر عدد الشعوب . وهذه العادات التي جمعت فيها البلاد كيفما اتفق تحتوي على بعض الفصول في حقوق التملك والمواريث ولكن معظمها ايضاح فيما يجب عمله في السرقات وحوادث القتل .

وكان البربر يرون ان الخصومات بين الافراد ليست سوى جرائم ليس من شأن الحكومة

بالتدخل بها فاذا وقعت جناية قتل فمن شأن القتيل او أسرته ان ينتقموا من القاتل او من ذوي قرباه فكل شدة تؤدي الى انتقام اضطراري بين الأسرات تشبه الانتقام المألوف الى اليوم في جزيرة الكورس . ولقد كانت المحكمة لابطال هذه الفظائع تكره المجرم ان يدفع غرامة الى آل القتيل ليكفوا عن اخذ الثار . وفي قوانين البربر تحديد دقيق لقيمة هذه الغرامات فلكل امرىء قيمة بحسب حاله فاذا هلك فالقاتل يؤدي قيمته برمتها واذا جرح يدفع القاتل جزءاً من قيمته على نسبة شدة الجرح واذا ضرب رجل رجلاً في رأسه وشجه يدفع ١٠ سولاً من ذهب (السول خمسة فرنكات) واذا ضربه برأسه واخرج منه ثلاث عظام يغرم بثلاثين سولاً واذا ضربه على أم رأسه فظهر مخه يغرم بخمسة واربعين سولا . واذا قطع رجله او يده او جدع انفه يغرم بمئة سول واذا بقيت اليد المقطوعة معلقة يغرم فقط بخمسة واربعين سولاً واذا التوت اليد واستؤصلت يغرم باثنين وستين سولاً واذا قطع له ابهام يده او رجله يغرم بخمسة واربعين سولاً واذا قطع له اصبعه الثانية التي يشد بها القوس يغرم بخمسة وثلاثين سولاً وفي الاصبع الثالثة يغرم بخمسة عشر سولاً وعن الخامسة يغرم بخمسة سولات وعن الخنصر يغرم بخمسة عشر سولاً . وكانوا يحكمون على كل فرد في المحاكم بقانون شعبه، قال أسقف في ليون في القرن التاسع ليس من النادر ان يجلس خمسة اشخاص معاً ويكون لكل منهم قانونه الخاص .

مملكة شارلمان

الكارولنجيون — لم يوفق ملوك الافرنج ان يخضعوا رعاياهم البربر اخضاع طاعة وعلى العكس فانهم منحوهم على التدريج جميع الاملاك الامبراطورية ليكون مقاتلتهم على مقربة منهم فغدا المحاربون ارباب أملاك عظمى وسكنوا في اراضيهم بين عبيدهم وخلعوا ربقة الطاعة فامسى الملك الميروفنجي شخصاً خاملاً منعزلاً . وقد نشأت في شرقي المملكة من انحاء اردين أسرة من كبار ارباب الاملاك لها بعض احترام من قومها يؤهلها الى خضوع مقاتلة بلادها لامرها ودعا رئيس هذا البيت نفسه بدوق الافرنج ولما كان هؤلاء الافرنج في الشرق اكثر مضاء ونشاطاً استباحوا حمى افرنج الغرب وغدا ملكهم مدير القصر لدى ملك الميروفنجيين واصبح السيد الحقيقي في المملكة عامة وبعد نصف قرن اراد احد الدوقات وهو بيبين لوبريف ان يلقب نفسه ملكاً فسأل البابا زاخري رأيه فاجاب بان من حصلت له السلطة الملوكية يجب ان يكرم (٧٥٢) وعلى ذلك

نودي ببيبين ملكاً على الافرنج وجاء القديس بونيفاس فمسحه هو وامرأته برتت المقدس فاصبحت الأسرة الكارولنجية من ثم أسرة ملوكية يحترمها الشعب وتقدسها الكنيسة .

شارلمان — كان شارلمان من بين أقدر ملوك الغرب على الاطلاق فقد اخضع بسيف جنده جميع شعوب المانيا وتقدم الى الشرق نحو الالب والى الغرب نحو الابر ومملكته عبارة عن فرنسا والمانيا وايطاليا الشمالية [1] ولقي الباباوات في ايطاليا على ذلك العهد وعانوا من اللومبارديين ومن ملوك البيزنطيين حتى انهم لم يكونوا في رومية من القوة بحيث يحترمهم الناس على الدوام . وكاد البابا ليون الثالث ذات يوم ان يذبح في احدى الفتن وضرب وديس بالارجل واضطر الى الفرار واستنجد الباباوات غير مامرة بملك الافرنج بيبين وابنه شارلمان اذ كانوا يحتاجون الى حام قادر يحميهم فظهر من شارلمان انه كفوء للذب عن حماهم ومنابذة من عاداهم . انتخب البابا ليون الثالث الجديد سنة ٧٩٥ بعث الى شارلمان بمفاتيح قبر القديس بطرس المقدس وعلم مدينة رومية طالباً اليه ان يبعث باحد يأخذ باسمه بيعة الشعب الروماني فاجاب شارلمان اني راغب ان اعقد معكم محالفة لا تنقض عراها يكون سداها الاخلاص ولحمتها الحب حتى انال البركة الرسولية من قداستكم ويكون كرسي الكنيسة الرومانية المقدسة من اخلاصي مدافع عن الحمى . وجاء شارلمان الى رومية سنة ٨٠٠ فتوجه البابا ونادى به امبراطوراً وعلى رواية اجنهارد صديق شارلمان ان هذا لم يتعمد هذه الحفلة بل ترك البابا يعمل ما يريد قال ولو شعر بما يراد عمله لما دخل الكنيسة ومع هذا رضي بان يلقب بامبراطور الرومانيين واغسطس وما عدا أمر لا نادرة لم يرض ان يتخذ بدلاً عن اللباس الامبراطوري واحتفظ بلباسه الافرنجي وهو سروال من الكتان مشدود بعصابات وقميص من الصوف يناط به زنار ثم رداء واسع

وهذا التتويج لم يزد في سلطة شارلمان ولم يكن حدثاً عظيماً وغاية ما في الامر انه اصبح في الغرب بعد ذلك الحين امبراطوراً يعترف البابا والاساقفة بامتلاكه وانه حامي الكنيسة . واصبحت هناك سلطتان روحيتان البابا والامبراطور يحكمون الشعب ورجال الدين حكماً مشتركاً .

---

(1) دع عنك الشعوب الصقلبية فيما وراء نهر الالب التي كانت تؤدي له الجزية صاغرة

حكومة الكونتية — لم يحاول شارلمان العمل بقانون الامبراطورية الرومانية بل ترك ارباب الاملاك معفون من الضرائب اذ رأى من ريع املاكه الخاصة ما يكفي للانفاق على قصره والجيش لا يكلفه شيئاً فليس عليه من ثم الا ان ينشر الامن ويقيم ميزان العدل ويجمع المقاتلة اذا احتيج اليهم فكان الكونتية هم الذين يتولون هذه الوظائف ولكل مدينة (مثل تور انجر شارتر) كونت واحد وهو في العادة اعظم ارباب الاملاك في ذاك الصقع فكان هذا الكونت يحكم باسم ملك في كورته وحكمه نافذ على من تحت يده فيدعو الجار بين للحملات ويطارد الاشقياء وكان كثيراً عددهم يومئذ ويجمع كل سنة عدة مجالس للحكم في الخلاء يحضرها ارباب الاملاك في تلك الكورة مدججين باسلحتهم وكانت الكونتية في حاجة الى من يراقب حركاتهم اذ كانوا من السطوة والاستقلال في بلادهم حتى ان بعضهم دعوا انفسهم كونتية بنعمة من الله ولذا كانوا كثيراً ما يستعملون سلطانهم لاضطهاد السكان . قال الكابيتوليريون نريد ان لا يكره الكونتية الرجال الاحرار ان يجزوا لهم عشب مروجهم او يحصدوا لهم حصادهم وان لا يأخذوا بالقوة والاحتيال املاك الفقراء .

فكان المرسلون من قبل الملك يطوفون كل سنة البلاد ليراقبوا اعمال الكونتية فيجمعون السكان في كل بلد ويسألونهم عما يشكون منه ثم يحملون الكونت على انصافهم مهددين اياه بغضب الملك عليه ولما سقط اعتبار الملك لم يستطع انفاذ مرسليه غدا كل كونت ملكاً صغيراً وتألفت من كل كونتية مملكة صغرى

رجال الدين في الحكومة — اصبح الاساقفة ورؤساء الاديار منذ ذاك العهد من طبقة القوم وارباب الاملاك الواسعة فيهم . ودخلوا على عهد شارلمان في الحكومة فكانت تعقد جلسة سنوية في قصر الملك للنظر في المسائل فيتشاور الاساقفة ورؤساء الاديار مع الكونتية ورجال الجيش واذ كانت هذه الفئات منورة اكثر من غيرها فهي التي كانت تسن القوانين وتدونها . وكان لكل مدينة كونتها واسقفها فجعل شارلمان الاسقف مساوياً للكونت وامرهما ان يحكما معاً قائلاً انا نريد ان يعين الاساقفة الكونتية ويساعد الكونتية الاساقفة ليتمكن كل من الفريقين ان يقوم بعمله حق القيام . فكان على الاسقف ان يحرم اللصوص والعصاة وعلى الكونت ان يكره بالقوة من كانوا يعصون الاسقف ومكافأة للسلطة التي منحها الامبراطور لرجال الدين اصبح هو نفسه زعيم الكنيسة او اسقف الاساقفة فكتب الى البابا : « ان من شأني ان

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فكان يقضى على الغزاة ان يتجهزوا و يتسلحوا على نفقتهم ومن قل مالهم يأتون رجالة وسلاحهم ترس طويل ولكن كل من كان لهم مال يحاربون فرسانا راكبين ومدججين بشكة حديد . وهذه الشكة غير مستحدثة بل استعملها الفرسان البارتيون وكانت أجسام الفرسان الذين يقاتلون في الجيش الروماني في القرن السادس مدججة على تلك الصورة ولما أطلقت للمحاربين حرية ان يتجهزوا كما يشاؤن آثروا من الجهاز ما يقيهم الخطر اكثر من غيره وهكذا لم يبق مشاة في الجيوش وفي أواخر القرن التاسع لم يبق في اوربا الغربية من المقاتلة الا الفرسان اللابسون لحديد وهؤلاء هم فرسان القرون الوسطى .

دستور الحكومة — ان المراسيم الصادرة عن شارلمان هي مجموع ما كتبته حكومته وهي عبارة عن مناشير ونشرات وكتب ولوائح بسيطة ولم يكن معظم هذه المناشير الا ابن ساعته صدرت في غرض خاص ولكن من القوانين ما يجب تطبيقه في المملكة كلها وقد حفظ بعضها ودخل في مصطلحات الشعوب في القرون الوسطى .

الآداب والمدارس — كان شارلمان يحب الآداب حبًا جمًا كما يحب غير المتعلمين ان يروا احياناً السطور المكتوبة يحبها لانها تتراءى له انها غير منفصلة عن الدين المسيحي واليك ما كتبه سنة ٧٨٧ الى جميع اساقفة مملكته ورؤساء اديارها : «احسنوا استعمال ذكائكم بعد مشاورة المخلصين لنا فقد رأينا ان الأسقفيات والاديار في حكومتنا يجب عليها زيادة على الحياة المنظمة والقيام بالدين المقدس ان تبذل غيرتها في درس الآداب وان تعلمها الى من يقدر على تعلمها بعناية الله فان من يريدون ان يرضوا الخالق بان يعيشوا عيشة راضية لا يتهاونون في سبيل مرضاته بان يتكلموا اطيب الكلام . ولما كان قد كتب الينا في السنين الاخيرة من عدة أديار يعرفوننا ان الاخوان الذين يعيشون فيها يضاعفون صلواتهم لنا فقد لاحظنا في معظم هذه المكتوبات التي فيها شعور الحق كلاماً غثاً لا متانة فيه ولذلك بدأنا نخوف من ان يقل العلم في أسلوب الكتابة وان يفقد الذكاء فيكون اقل مما يجب لتفسير الكتب المقدسة ولهذا نحرضكم ان تتنافسوا في الغيرة على العلم تستطيعوا ان تخترقوا فهم الكتب المقدسة على أيسر وجه وتحيطوا باسرارها الحافلة راحة » وعليه فقد امر ان يكون في كل كنيسة كاتدرائية او دير مدرسة فيكون في صحنها صف يقوم رجال الكنيسة على تخريج الاولاد فيه وكثيراً ما كان يحضر شارلمان بنفسه في الدروس فيتعلم الاولاد القراءة والكتابة اللاتينية

وترتيب الصلوات ومن هؤلاء الاولاد كان شارلمان يختار الاساقفة ورؤساء الاديار .

ولقد كان شارلمان يحب الادباء فجمع حوله عصابة كمجمع علمي صغير ولقب الرجال الذين يؤلفون هذا المجمع باسم رجل عظيم من القدماء فاسم الكوين هوراس واسم ادالارد اوغسطينوس واسم انجلبر هوميروس واسم تيودولف بندار واسم شارلمان داود . فيقضون الوقت في تأليف اشعار لاتينية وفي القراءة والانشاد وحل المعميات والاحاجي واليك جملة مستخرجة مما كتبه الكوين : ماهي الكتابة ؟ — حافظة التاريخ — ما الكلام ؟ — خيانة الفكر — من يلد الكلام ؟ — اللسان — ماهو اللسان ؟ — المدق الذي يضرب الهواء — ماهو الهواء ؟ — حافظ الحياة — ماهي الحياة ؟ — فرح السعداء وترح البائسين وتوقع الموت . »

والادبيات المأثورة عن هؤلاء الادباء يرغبون فيها مع انها صبيانية تشبه تمارين ابناء المدارس ولم يكن للبرابرة من الثقة بانفسهم مايجرؤن معه على ان يكونوا مبتكرين في انفسهم بل كانوا يطمعون كل الطمع في احتذاء مثال القدماء ولذلك لم يوفقوا الى انشاء ادبيات حقيقية على ان العناية التي بذلها شارلمان ورجال الدين وادباء عصره لم تكن عقيمة لأن رهباناً منذ قرنين لم يكن في عالمهم ما يشبه الادب وما دونوا كتاباً بل ولا اخباراً وتكتب الكتابات الرسمية التي لايستغني عنها (كالوثائق والهبات والوصايا) باللغة اللاتينية البربرية وهي من سقم الخط بحيث يصعب حلها وبعد شارلمان اصبحت اللغة اللاتينية مضبوطة جداً والكتابة مقروءة لغاية تكاد تشبه الكتب المطبوعة .

خراب مملكة شارلمان — لم يطل عمر مملكة شارلمان لان الافرنج لم يستطيعوا ان يقلعوا عن عادتهم في ان يروا المملكة كالاملاك تقسم بعد موت الملك بين اولاده على السواء بيد ان شارلمان نفسه وزع بلاده بين اولاده الثلاثة . فعاش لويز وحده وورث الملك ورزق لويز هذا ثلاثة اولاد ايضاً فاراد مستشاروه من رجال الكنيسة ان يرث الملك بكر اولاده فقط لتبقى مملكة واحدة وعضد الفرقة الافرنج اصغر الاولاد سناً ولكن غلب حزب الوحدة على امره فتعددت الممالك بتعدد اولاد كل ملك فكانت تقل وتكثر على تلك النسبة . اما لقب الامبراطور فلم تتأت تجزئته بل كان يطلق على ملك واحد ويكون في العادة من أضعفهم سلطة مثل ملك ايطاليا وبعد سنة ٩٢٤ لم يعد احد يلقب هذا اللقب . ورأى مؤرخو ذاك العهد والقرن الآخر منهم تلك المملكة

القطعي ثامنت . وقد ألف فلوروس شماس ليون مرثية بعد عقد معاهدة فردون قال فيها : بدلاً من ملك لنا عدة أقيـال وبدلاً من مملكة لنا اجزاء من مملكة . وما من أحد اذ ذاك كان يظن ان تلك القطع تصبح ابضاً أمماً وان ذاك الاختلاف يكون ابرك من تلك الوحدة الرومانية

النظام الاقطاعي

المجتمع الاقطاعي

الطبقات الجديدة — اضمحلت في القرن العاشر القوانين الخاصة للامم البربرية المختلفة فقبل سكان جميع اوربا تقريباً عادات واحدة وأمتاز منذ ذاك الحين بعضهم من الآخر لا بأمتهم بل بمقامهم وعملهم ولم يعد يجري ذكر الافرنج (الفرنك) ولا الرومان ولا البورغونديين بل اصبحت الشهرة للفرسان والسادة والشمامسة والفلاحين قال احد الاساقفة في القرن الحادي عشر ان بيت الله مثلث فمن ابنائه من يحارب ومنهم من يصلي وغيرهم يعمل . وبهذا المجتمع الجديد ابتدأ نظام دام الى أواخر القرن الخامس عشر .

الفرسان — قضي على كل رجل حر منذ عهد شارلمان ان يكون جندياً وقد جاء بعض الاسبانيين ممن طردهم العرب يسكنون في اقليم لانكدوك فقال لويز لدبونير وقد اعطيتهم أراضي يستثمرونها انهم كسائر الرجال الاحرار يذهبون الى الجيش . وكل من لا يريد ان يخدم الجندية او لا يستطيع ان يجهز نفسه للحرب يفقد حريته . فلم يكن غير رجال السلاح يعدون من اهل المجتمع ومنذ القرن التاسع كان الجندي يحارب راكباً حصانه على الدوام (واصبحت كلمة ميلس اللاتينية ومعناها الجندي مرادفة لكلمة فارس) ويتقلد حساماً من الفولاذ ورمحاً طويلاً من خشب الدردار ويحمل للتوقي من الضرب مجناً طويلاً من الخشب والجلد ويلبس في الوغى قميصاً مغشى بحلق الحديد وفي أواخر القرن الحادي عشر استعيض عن هذا القميص بآخر من زرد الحديد يصل الى الركبة ويستر حتى الذقن والرأس مغطى بخوذة من الفولاذ والانف بمخرين يتنفس منهما . وهذا الجهاز ثقيل متعب يقتضي لاستخدامه عادة طويلة وخادماً خاصاً يحمل المجن ويضع الخوذة والدرع وهذا الخادم سمي حامل المجن وباللاتينية (armiger) حامل الاسلحة

وفي القرن الحادي عشر انتهت الحال بهؤلاء الرجال المسلحين ان يؤلفوا منهم

طبقة وراثية فكان الابناء في أسرة من الفرسان يصبحون فرساناً والبنات الفرسان لا يتزوجن الا من فرسان ولا يحق لاحد ان يصلح فارساً الا اذا كان ابن فارس . واصبحت الفروسية صناعة بل منصب ووظيفة ولم يكتف الفرسان في ذلك العهد ان يكونوا رجالاً احراراً بل دعوا انفسهم « الاشراف » ودخل في تلك الطبقة الممتازة الخدمة وحاملو المجان من بعد القرن الثالث عشر فاصبحت كلمة فارس وحامل المجن مرادفتين لكلمة شريف .

السادة — كل رجل عظيم في هذا المجتمع العسكري بأمره يعد رجل حرب حتى الكونتية والدوقات والملوك وبين الفرسان ايضاً كثير من كبار ارباب الاملاك وقد نالوا من الملك املاكاً عظيمة على سبيل الهبة او ورثوها من آبائهم وتكون هذه الاملاك على الاقل قرية برمتها وفي الاعم الاغلب ان تكون عدة قرى . ويدعى هؤلاء المالكون العظام بحسب البلاد فهم « البارونات » الرجال ومعنى « سير » او « سنيور » السادة او الاغنياء ويلقب نساؤهم بداما اي سيدة . واذ كان اولئك السادة الاغنياء لهم في حل من ان يأخذوا خدمتهم فرساناً آخرين ويقدموا الى الحرب في رأس جيش صغير واصطلحوا الى اتخاذ علم لهم يجتمعون تحته فهم من حملته ولذلك سموا العلميين (Bannerets)

العطايا والاقطاعات — اعتاد المقاتلة البرابرة منذ عهد شرلمان ان يقدموا للزعيم الذي يقودهم بالاتفاق عليهم بالاخلاص له والاستماتة دونه فالمقاتل عندما يقسم هذا اليمين للزعيم يبقى ما يكون ارتباطهم طول الحياة فيكون الزعيم يدعو المقاتل أميني او رجلي او مقاتلي او عبيدي وهذا يسمي الزعيم سيدي والمقاتل يصحب سيده الى الحرب ويخدمه حتى على المائدة فيكان خادمه ورفيقه في الحرب . والسيد يؤدي اليه لقاء خدمته يعوله ويعطيه اسلحة والبسة وحصاناً واحياناً يعطيه ملكاً .

وقد اصبحت العادة في الانعام على المقاتلين بالاراضي ليستثمروها عادة في فرنسا اواخر القرن التاسع (وربما نشأ ذلك من كون رجال الحرب نادرين في البلاد الفرنسوية) فالاراضي تعطى لقاء اجرة اقطاعاً او مستثمرة ثم اصبح في حكم العادة المطلقة ان كل مقاتل يتناول اقطاعاً وانه لا سبيل الى ان يملك المرء اقطاعاً ان لم يكن مقاتلاً لاحد ارباب الاملاك . والمالك الاقطاعي يحق لاولاده ان يخلفوه وكان يتولى الفرسان ادارة شؤون املاكهم فيعدون مستقلين عن سادتهم الا قليلاً ثم ان

السادة اقسموا للسادات اعلى منهم بان املاكهم تلقوها منهم على سبيل الاقطاع فيقسم الدوقات والكونتية تلك التي كان يحميها الحكم اقطاعاً . ويكاد يكون جميع السادات سادة ومقاطعين في آن واحد والاراضي الا قليلاً كانت تعتبر اقطاعات ومن هنا نشأ نظامها .

وهذا النظام الذي وضع في القرن العاشر قلما يشبه طرائد عهد شارلمان على ان الاسماء والاعتبارات بقيت بحالها فان المقاطع يقسم ايضاً يميناً يرتبط بها مدى الحياة وهذا ما يدعونه العطية سموها *Hommage* لانها تجعل المقاطع رجل السيد واليك الصورة الشائعة في هذا الباب : ايها السيد لقد اصبحت من رجالك صاحب الاقطاع الفلاني واعدكم ان ارعى لكم حقكم وادفع عنكم كيد كل من يحيا و يموت . ويعد المقاطع لسيده الاخلاص له والمعاونة والمشورة ومعنى الاخلاص ان لا يفسخ مقاطعته ولا يقاتله ولا يعتدي على امرأته واولاده . ومعنى المعاونة له ان يعاونه سواء كان في المقاتلة دونه او في انزاله احسن منزل واعطائه دراهم ومعنى المشورة ان يتقرب منه بنصحه و برأيه خصوصاً على الحكم والتصدر . وانتهت هذه الواجبات بان ضعفت وقلت حتى ان العطية لم تكن الا اصطلاحات مألوفة ولما غلب جوفروي دانجو تيبو دي بلوا في القرن الحادي عشر اضطره ان يتنازل له عن كونتية تور على سبيل المقاطعة وان يعطي لاميره عطية

رجال الدين — كان ينظر الى رجال الدين (اعضاء الكهنوت) بانهم خدمة الله وكانوا قادرين بنظامهم ايضاً . ويعتقدون ان اعطاء مال او اراضي للكنيسة كان من آكد الاسباب لمحو السيئات وانقاذ الروح فكان زعيم الكنيسة المقدس والرهبان خدمة المقدس يكافئون المعطي بدخولهم في امره مع الله . وقد عثر في عطية خصصت لاحدى الكنائس المخصصة للقديس ايتن (١١٤٠) ما نصه : « اعطيت الى ايتن الشهيد العظيم جزءاً من ارثي في الارض ليكون لي من صلواته وصلوات اتباعه الغفران عن خطيئاتي والنجاة الابدية » وكانت صكوك الهبات تبدأ بالعبارات الآتية : « خلاصاً لروحي وارواح اجدادي » واحياناً يزيدون « لدفن جسدي » ولذلك يهب الواهبون اموالهم ليدفنوا في الكنيسة نفسها . فكانت رجال الدين يأخذون احياناً قرى برمتها وهي عطايا السادات العظام واحياناً قطع ارض او ملكاً وهي عطايا الفرسان والفلاحين فالدير الذي يبدأ بان يملك ملكاً واحداً يملك مئات من القرى

بعد والاساقفة ورؤساء الاديار وهم اصحاب تلك الاملاك العظيمة يصبحون سادة عظاماً ليس بعد عظمتهم عظمة ·

العامة — اصبح جميع ارباب الاملاك خلال حروب القرن التاسع يكرهون على المضي الى الجيش وكانوا الا قليلاً من حلقة الفرسان · فالارض كانت من ثم ملك الكنائس والسادات والفرسان وكلهم من كبار ارباب الاملاك لا يزرعون بانفسهم وكانوا منقسمين الى محلات كبرى تسمى المدن وفي العادة ان المدينة كانت عبارة عما ندعوه اليوم قرية واحدة كانت بسعتها كالمديرية · وتكاد تكون جميع القرى الفرنسوية يرد عهدها الى تاريخ هذه المحلات في القرون الوسطى فالفلاحون الذين سكنوا هذه المدن سموا باسمها فسموهم العامة ولم يكونوا مالكين للارض بل كانوا يتوفرون على زرعها فقط فمنهم من كان من قدماء الرجال الاحرار الفقراء دخلوا في خدمة ارباب الاملاك كالمستعمرين او المزرعين ويسمون الاحرار والآخرون هم من نسل قدماء عبيد ارباب الاملاك ويدعون باسم العبيد الرومانيين وهؤلاء هم العبيد على ان العبد لم يكن كما كان العبد الروماني بل كان ساكنا في الارض التي يتوفر على زراعتها وله أسرة وبيت وحقل فسيده لم يكن يستطيع ان يجليه عن قريته ببيعه الى مكان بعيد ولا ان يأخذ امرأته واولاده ولا ان يأخذ منه داره ولا الحقل الذي كان ترك لاجداده وما كان العامي العبد اذاً منحطاً في درجته عن العامي الحر

حالة العامة — كان في الحالة العظمى في القرون الوسطى نوعان من الاراضي · بعضها (وهو القسم الاعظم) ترك للفلاحين يحرثونها ويحتفظون بغلاتها والآخر (وفي العادة ان تكون الاملاك القريبة من دار السيد) يبقى لصاحب الملك ويقضي على الفلاحين ان يحرثوها ويزرعوها ويحصدوها له وفي ايامنا ترى الزراع عندما يكونون غير مالكين هم عملة بالمياومة او مزارعوه وزراع القرون الوسطى هم مزارعون في ارضهم وعملة بالاجرة في اراضي المالك وهم يتعقبهم مع البعض من الاب الى الابن وصاحب الملك لا يستطيع ان يأخذ ارضهم التي يشغلونها وهم يتوارثونها كما يتوارث الملك ولكنهم لقاء ذلك يتحملون عدة اعمال وحقوق اقطاعية

(١) يعطون المالك أجرة الارض وضرائب ومخصصات من الحنطة والعلف والبيض والدجاج ويسمونها العادات لانها مقدرة بحكم العادة ويميز الفلاحون العادات الجميلة اي المخصصات الموضوعة من القديم عن العادات السيئة من مخصصات يضعها السيد

بالقوة خلافاً للعادة

(٢) يجب عليهم ان يذهبوا الى ارض السيد يحرثونها ويحصدونها ويسمدونها ويفصلونها ويحفظونها ويحطبون الخشب ويأتون بالقش وهذه هي السخرة .

(٣) عليهم ان يحملوا حنطتهم لطحنها في طاحون السيد وان يحملوا الخبز الى فرن السيد ويحملوا العنب الى معصرته ويجب عليهم ان يدفعوا عن هذه الخدم المقررة عليهم ما يقتضي لها من النفقات كما يحتم عليهم في السوق ان يستخدموا قياس السيد وموازينه ويدفعوا اجرتها .

(٤) يتقاضون في قضاياهم الى السيد واذا ارتكبوا جنحة يدفعون للسيد غرامة يأخذها لنفسه واذا ارتكبوا جناية يحكم عليهم السيد بالاعدام ويصادر جميع ما يملكون . والعدل اي حق جباية الغرامات هو دخل يتسرب الى جيب السيد ويعد في جملة املاكه فيقول السيد : عدلي في القرية الفلانية . فهو يبيعه ويعطيه اقطاعاً ويقسمه بين بنيه وليس من الامور النادرة ان يملك الرجل نصف او ربع القضاء في قرية او القضاء في بعض البيوت . وينصب السيد في ارضه مشنقة رمزاً الى حقه واللصوص الذين يشنقهم عليها دليل ناطق بحقه في هذا الشأن . واذا تنازع سيدان في تولي احكام القضاء في قرية (كما يحدث احياناً) يجيء رجال السيد المطالب يرفعون المصلوب ويأتون به الى مشنقة سيدهم واذا ربح القضية السيد الذي صلب المصلوب تعاد اليه جثة مصلوبه والا فيرجع اليه قبض عليه تماماً بدله ، يعيد الجثة او صورتها

فالعامة خاضعون كل الخضوع لسيدهم ولا يحق لهم ان يجتمعوا لفض مصالحهم واذا فعلوا يغرمهم بغرامات باهظة فهو قاضيهم الوحيد . قال احد مشترعي القرن الثالث عشر : الملك يا عبد اذا اخذت شيئاً من عبدك زيادة على الحصص التي لك في القانون تأخذه وانت على خطر كما يأخذه اللص وليس بينك وبين عاميك من قاضٍ الا الله (١) . ومع هذا فحالة العامة كانت اقل شدة مما كان عليه حال الفلاحين العبيد في القديم ولكنهم ليسوا بعد احراراً حقيقة فالفرسان يحتقرونهم لانهم يشتغلون في الارض ولانهم عزل من السلاح واصبحت كلمة عامي في لسانهم مرادفة لكلمة نذل .

---

(١) ندر جداً ان قام الفلاحون بثورة في القرون الوسطى ولا نعلم من ثوراتهم سوى ثورة ٩٩٧ في نورمنديا وثورة الفلاحين المعروفة بالجاكية في القرن الرابع عشر مما يدل على ان الفلاحين كانوا راضين عن حالتهم ان لم يكونوا يرجون الخروج من حالتهم

الأخلاق

الحروب — جرت عادة الفرسان ان يقتتلوا ثم اصبحت قاعدة فيحق لكل رجل يحمل السلاح ان يعرض عن الحرب لاهانة لحقت به ولاعتداء على عائلته فيبعث الفارس الى خصمه قفازه او بعض الشعرات من سرواله دليلا على اعلان الحرب . ويدعو الرفاق الخصمين وذوو قرباهما في الحرب شيئا فشيئا ويغيرون على محلات العدو ويسوقون ماشيته ويحاصرون قصره ويحاولون القبض عليه ليفتدي نفسه منهم . واصبح الحرب من ثم لهوا وتجارة فاصبح ليس فيه خطر كبير على المسلحين من الرجال الفرسان . واليك كيف وصف اوردريك فيتال حرب برنفيل (١١١٩) بين ملك فرنسا وملك انكلترا اسر ١٤٠ فارساً أسرى عند الغالب ولكنني علمت انه لم يقتل من التسعمائة شخص الذين حاربوا سوى ثلاثة اشخاص فقط وذلك لانهم كانوا مكتسين كلهم بالحديد من رؤوسهم الى اقدامهم وكان خوف الله والاخوة في حمل السلاح تدعوهم الى الاقتصاد في الطعان والتوقف في ضرب الاعداء فيؤثرون القبض عليهم بأسرهم على ان يقتلوهم . وكثيراً ما يرى الفرسان من الاولى ان يطلبوا من الفلاحين والتجار فدى فتنقلب الحرب الى لصوصية وكان في عامة البلاد سادة على مثال توماس دي مارل الذي كان يسلب التجار في الطرق ويسلبهم اموالهم ويسجنهم في سجن قصره ويعذبهم ليكرههم على ان يفتدوا منه انفسهم . ولقد ظل حق الحرب مرعياً في كثير من الولايات الى القرن الخامس عشر فلم يرد الفرسان ان يتخلوا عنه وكانت الحرب شغلهم الشاغل طول حياتهم . واليك كيف قص فيلك كونت دانجو حياة جوفروي : « ان جاي صار فارساً في حياة ابيه وكانت حربه الاولى هي التي شنها على جيرانه فقام يقاتل احدهما وهو كونت بواتو والآخر وهو كونت مين واسرهما كليهما وحارب اباه ايضاً (١) ولما قضى اباه صارت اليه كونتية انجو فحارب كونت [illegible] واسره [illegible] واضطره الى ان يتخلى له عن تور ومن ثم حارب عليه ملك نورمنديا وحارب كونت بروج وكونت بواتو وفيكونت تور وكونت [illegible] وكونتية [illegible] في [illegible] وهو كونت [illegible] طول عهده . ومن جراء هذه الحروب وما نال فيها من الشجاعة لقب [illegible] وختم حياته لانه رجع عن الدنيا [illegible] وترهب في

---

(١) اضطر جوفروي هذا الى الخضوع لابيه [illegible] بحسب عادة جرمانية قديمة ان يجيء يمشي امامه على يديه ورجليه وجل فرس على ظهره

دير القديس نقولا الذي بناه هو وابوه تزهداً ووقفوا عليه الوقوف من الاملاك

الابراج والقصور — كان السادة في عهد تلك الحروب في حاجة الى تحصين بيوتهم وكان التحصين في القرن العاشر مشعثاً جداً وهو عبارة عن حفرة عميقة يحميها من الخارج تحدر عليه عرائش واشجار وفي وسط ذاك السور ينشئون أكمة وبيت السيد بني في ذروتها وما هو الا برج قوي من الخشب وبابه عال جداً عن سطح الارض ولا سبيل الى الوصول اليه الا بالمرور على لوح من الخشب متحرك منحدر من الباب الى آخر الخندق . ولمنع العدو من احراق البرج يغطونه بجلود حيوانات سلخت حديثاً . وهذه الكتلة الغليظة هي البرج او بيت السيد اما سائر الاماكن فتمر في السور في سفح الاكمة (فيها مساكن الخدم واصطبلات واهراء) وكلها من توابع البرج .

واخذ القوم في القرن الحادي عشر (في بلاد الجنوب اولاً) يستعيضون عن العرائش وبرج الخشب بحائط وبرج من الحجر على نحو ما كان للرومان حوالى مدنهم الحصينة وسموا هذه القلاع باسم لاتيني كاستل او قصر (موقع صغير حصين) فقصر القرنين الثاني عشر والثالث عشر عبارة عن سور من الحجر على جوانبه ابراج وهو محاط من كل جانب بخنادق عميقة او هوى ووهاد وقد بنيت عند الاستطاعة في مكان حصين على منحدر عقبة كؤود او شقيف في ارض سهلة على اكمة مناعية فيها انواع الدفاع فاذا جاء العدو يرى اولاً في مقدمة الخندق ما يصده عن المرمى ثم الخندق الذي يجتازه سكان القصر يصل بينهما معبر نقال معلق بسلاسل وعليه حواجز ثم يصل الى اسفل حوائط السور التي افرطوا سمكها ويقف المدافعون على الطريق الدور الذي يمتد في الداخل على الحائط فيقذفون السهام والحجارة من الشرفات (زنابيل) ومماشي الخشب المعلقة فيحتوي على مساكن اهل القصر والخازنين والاصطبلات والخنازير والاهراء والكنيسة وبيت السيد وهذا البيت هو برج جسيم (من طراز رومانسي من القرن الحادي عشر علوه اربعون متراً وعمقه ٢٤ وطراز كوسي من القرن الثالث عشر علوه ٦٤ متراً وعمقه ٣١) وهناك القاعة العظمى التي يستقبل فيها السيد ضيوفه (للسادات العظام فقط خارج قصورهم ردهة استقبال وهي القصر) وغرفة منامه وغرف أسرته وخزائنه وسجلاته وفي ذروة ذاك المكان السطح الذي يشرف منه الديدبان على الضواحي وفي الاسفل على طبقتين من الارض الهري او المطبق وهو مظلم رطب لا يخرج منه الا ببلاء . فاذا داهم العدو السور يستطيع المحاصرون الذين يتحصنون في القصر ان يدافعوا

عنه رويداً رويداً وطبقة طبقة مادام التدرج الاقطاعي باقياً . ويعيش السيد في قصره واسمه يعرف به مثل بسي دي شاردي . مونالبي او انجراند دي كوسي . والفارس كذلك في بيت حصين ويطلق اسم بيته على اسم أسرته

الفروسية — اسلحة الفرسان ثقيلة الحمل فالواجب ان يتعلم الفارس استعمالها وحملها ايضاً يجب ان يحصل على قوة يحملها دائماً . لا يولد فارساً حتى ولو كان ملكاً ومن القواعد المقررة ان لا يكون المرء فارساً الا بعد التمرن في ذلك والاحتفال به . فعلى الشاب النبيل ان يتمرن على ركوب الخيل وان يحسن الضرب بالرمح والقناة وان يصعد السلم . وما دام يتمرن على ذلك في بيت ابيه يبعث به ابوه الى سيد من اصحابه فيصبح الشاب بعد بضع سنين خادماً يحمل اسلحة سيده ويقود حصانه ويعنى بتربيتها ويلبسه شكته ويخدمه على المائدة ويخدمه في فراشه . فقد كان القدماء يرون من أعظم العار ان يخدم الانسان انساناً فأتى الدهر واصبحت الخدمة من أمارات الشرف فالسائس يخدم الفارس وهذا يخدم سيده والفرسان والكونتية والدوقات يخدمون الملك في المائدة في الحفلات .

فاذا بلغ السائس أشده يقبله احد الفرسان في جملة رجاله باحتفال وكان هذا احتفالاً بسيطاً اولاً والفارس يدفع الى المبتدئ سلاح الفارس وهي عبارة عن ترس ودرع ورمح . ثم يصفعه على مؤخرة عنقه بيده . فالفارس الحديث يقفز على السرج ويرمح قليلاً واحياناً يتسابق مع عمدان (شخص من خشب) منصوب امام القصر وبهذا يكون الفارس فارساً وبعد حين حوالي القرن الثالث عشر أضيفت الى هذه الحفلة حفلات دينية في الكنيسة فيقام قداس وصلوات ووعظ يوجه الى الفارس اما العادات القديمة في قبول الفارس على ما يصفونها في الاقاصيص الحديثة فلا توضع الا في القرن الخامس عشر . ولكل سائس الحق ان يصبح فارساً ولكن الواجب ان يكون غنياً ليشتري السلاح والعدة ويعول سائساً وخدماً ولذلك بقي معظم الشرفاء سواساً طول حياتهم .

اخلاق الفرسان — لا يمتاز شرفاء القرون الوسطى عن الفلاحين بثقافتهم ولا تهذيبهم . ومعظمهم لم يكونوا يعرفون القراءة وما شغلهم الا الشرب والطعام والصيد والحرب وكانوا في العادة متوحشين قساة واحياناً جفاة غلاظاً فقد قتل ريشاردس قلب الاسد [illegible] ٢٥٠٠ اسير من العرب وقد فقأ عيون خمسة عشر فارساً أسروا في حرب اشتركوا فيها مع فيليب اوغسطس وقادهم الى ملك فرنسا تاركاً لهم دليلاً منهم فقئ

له عيناً واحدة يبصر بها فأجابه فيليب اوغسطس بل عمله بأن فقأ عيون خمسة عشر فارساً من فرسان ريشاردس وأعادهم اليهم تحت قيادة امرأة حتى لا يظن احد كما قال مادحه بأنه دون ريشاردس قوة وشجاعة ولا ان يذهب الى انه يخافه . وفي سنة ١١١٩ فقأ اوستاش دي بروتل احد كبار السادة النورمنديين وصهر ملك انكلترا عيني احد الاشراف الذين كانوا عنده رهينة فانتقم والد المقلوعة عيناه ان اخذ بنات اوستاش بواسطة جدهم وفقأ عيونهن وجدع انوفهن . وهذا الاغراق في الشدة والقسوة البربرية لم يزل مألوفاً الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . وقد اصبح الفرسان بحياة التشرد على هذا النحو قساة القلوب غلاظ الطباع ولكن منحتهم بعض الفضائل التي تتطلبها الحروب وجعلتهم شجعاناً مفاخرين . والفارس التام الادوات الذي يتغنى الشعراء بمديحه ويحاول كل انسان تقليده هو الشجاع او صاحب الامانة والتدبير . وكانوا اذا سلحوا فارساً يقولون له : كن شجاعاً . والشجاع في عرفهم هو المقدام المفاخر الصادق الذي لا ينكث بنية ولا يرجع عن قوله ولا يحتمل ابداً اهانة . فالشجاعة والصدق كانت ودامت الصفات الرئيسية في الشرف . والشجاعة معتبرة لا من حيث الخدم التي تؤديها بل لانهم كانوا يرونها جميلة في ذاتها والفارس قد يبذل نفسه حتى في غير جدوى لئلا يخالج احداً شك بأنه اوجس خيفة . والموت خير من ان يدعى الرجل نذلاً كما جاء في قصيدة قديمة . وعلى الفارس ان يكون صادقاً براً بوعده وقوله وبقسمه خاصة اذا كان يمين الاخلاص الذي يقسمه لسيده ويكون كاذباً في ايمانه خائناً في فروسيته ومن العادة في رعوية ان من لطم سيده بيده او طعنه بلسانه او استباح قصره واستصفاه هو من اعظم من ارتكبوا اعظم الخيانات . يفهم ذلك من روح عدة قصائد نظمت في القرون الوسطى . فقد اضطر رنودي مونتوبان ان يعلن الحرب على سيده شارلمان فحاذر ان يؤذيه اقل ايذاء ولما أسره وقع على رجليه طالباً الصفح عنه . ولقد ظل برنيه تابع راول دي كامبري ما جلب عليه العار من سيده فسأله سائر الفرسان كيف يستطيع ان يظل على خدمته فأجاب ان راولاً هو سيدي هو اكثر خيانة من جودا ولكنه سيدي فقالوا له اجمعون انك محق يا برنيه

الشرف — يفاخر الفارس انه شريف وجندي ويعرف لنفسه فضلها فلا يشك فيه احد بل ولا يلاحظ ذلك . وليس على احد ان يضربه او يهينه او يحاكمه لان ذلك مما يؤدي الى اتهامه بامانته وهو ايضاً لا يحتمل ضربة ولا اهانة ولا تكذيباً ويؤثر

شرف في نظام الفرسان وفي نظر نفسه اذا لم يشتغل الا بما يليق به من رماية بالنار والشعار . وهذا الشعور هو الشرف وهو انفة كبرياء او اعجاب شديد فهو يعول نفسه من قريبه ويأنف بالطاعة لانه يريد ان يشركه غيره بهذا الفكر . ولم يكن لليونان ولا للرومان لفظ للتعبير عن هذه الصفة بل انها اتت في القرون الوسطى ومنتقل الى ايامنا دليل الشريف العتيق . وقاعدة الشرف والرغبة في بناء الشرف مثلاً) يصح قاعدة سلوك الاشراف ومقياساً لمكانتهم

حكومة الاقطاعات

استقلال ارباب الاملاك — ضعفت سلطة الملك منذ القرن التاسع فضعفت طاعة رعيته فاغتنم السادات من النبلاء والخاصة ان يكونوا مستقلين في بيوتهم فكان كل صاحب ملك (فارساً كان او رئيس دير او اسقفاً) كالملك المستقل في املاكه يحكم اهله وخدمه هم رعاياه وله الحق ان يقودهم ويغرمهم ويحبسهم ويشنقهم وله شارة خاصة وله عتاد يبلغ اوامره الى السكان ويحارب جيرانه وكثيراً ما يحدث النقود . قال احد فقهاء القرن الثالث عشر ان كل بارون هو مليك في ارضه . وكل محل هي مملكة صغيرة بحيث ان رجال ذلك المحل يدعون اهل القرية المجاورة غرباء عنهم . وكان في البلاد عدة الوف من هؤلاء الاقيال وكثيرون هم فرسان فقط لايملكون الا قرية واحدة اما غيرهم من الاغنياء فيلقبون بالقاب سيد وبارون ثم ان في كل ولاية رجلاً يلقب بلقب كونت او الدوق ويكون اعظم ارباب الاملاك في الولاية ولم يكن اجداده على عهد شارلمان سوى حكام في خدمة الملك بيد ان الملك في القرن العاشر لم يكن له قوة ليستعيد منهم السلطة لانهم اصبحوا كونتية ودوقات (امراء [illegible]) حد واصبحت دوقياتهم وكونتياتهم [illegible] ملكاً وهي كسائر الاملاك يمكن بيعها ووقفها وقسمتها ايضاً (كما وقع لدوقية [illegible] اسكوتيا [illegible] كما وقع لكونتية [illegible] شامبانيا) واذا لم ينجب صاحبها ولداً ذكراً تنتقل الاملاك الى ابنته ويكون له من [illegible] وقد يعطيها زوجها) ويقال عندما ان الملك صار لا امراة) واذ ذاك يكون لكل ملك سيد مملكته سلطة مالك وكل ملك يعامل مملكته كملك . وقد بات من المحال ان يميزوا بين الملك والملك ولذلك كانت جميع سياسة الملوك في القرون الوسطى سياسة بيوت واسرات وكل ملك كالفلاح تماما يحاول ان يوسع ملكه وان يعول عياله

الملك — كان الملك اعلى سادات فرنسا كعباً وارفعهم منزلة وله لقب سام ويخضع له

الجميع ولكنه لم يكن اقدرهم بل كان لدوق نورمنديا وكونت تولوز املاك اوسع من املاكه ولم يكن بين الاخلاص الذي يرتبط به اولئك السادة العظام مع الملك الا عبارة عن حفلة ادبية لا يمنعهم من ان يعلنوا الحرب عليه حتى انهم كانوا اذا لم يريدوا نقض العهد علناً فلا يتضايقون منه . وقد وضع روبرت كونت فلاندر سنة ١١٠١ في عهدة عقدها مع ملك انكلترا الشرط الآتي : اذا هاجم لويس ملك فرنسا الملك هنري في نورمنديا يذهب روبرت في عشرة من الفرسان فقط الى جيش لويس ويبقى الخمسمائة فارس الآخرون في خدمة الملك هنري واذا زحف الملك لويس على انكلترا وأخذ معه الكونت يحتم على الكونت ان يأخذ معه ايضاً اقل ما يمكن من الرجال . ولقد بلغ التعجب مبلغه في بلاط لويس السابع عندما جاء أسقف ماند الى باريز يعترف بسلطة ملك فرنسا وقيل ان هذا البلد لم يخضع قط الا لاسقفه ولم يكن الملك ككبار السادة مطاعاً الا في محله واقتضى له اذا اراد ان يطاع في مملكة فرنسا ان يوسع املاكه على مر القرون ويدخل ولاياتها في ملكه الواحدة بعد الاخرى .

العادة — لم يكن لاهل القرون الوسطى قوانين محررة بل كانوا يعملون في كل مسألة بما سلف لاجدادهم منها ويسمون ذلك اتباع العادة ولم تكن العادة مكتوبة بل كانت تحفظ تقليداً حتى في القرن الثالث عشر ايضاً اذا حدث حادث مشتبه به يجمع اقدم السكان ويسألون عما رأوه يعمل في مثل هذا الشأن وهكذا كان لكل قرية عادتها حدثت مع الزمن ولم تكن تشبه عادة القرية المجاورة قال بومانوار لا يوجد في هذه المملكة سيدان ما كانا يعملان بعادة واحدة ومع هذا فان الصقع الواحد الذي تتشابه عاداته بعض الشيء يتألف منها عادة واحدة . والفرق الكبير كان بين بلاد الشمال حيث العادة كانت منبعثة من العادات الجرمانية وبين بلاد الجنوب التي احتفظت بعادات الحقوق الرومانية . وبعد فقد كان اهل القرون الوسطى يحبون العادة ويحترمونها لانها كانت القاعدة الوحيدة التي يرجعون اليها والسد الوحيد في وجه الظلم وعندهم ان العادة يجب بقاؤها ومن لا يحفظها يوشك ان يفتح سبيل الخصام الكثير بين الناس .

السلم والعدل — كان ارباب الاملاك في القرون الوسطى يوطدون دعائم السلام بين عبيد محلتهم ويحكمون بينهم (احكاماً تختلف جوراً وعدلاً) ولكن لم يوطد احد دعائم السلام بين ارباب الاملاك وكل منهم يحكم لنفسه بنفسه وذلك باشهار

الحرب على جاره ويقتضي تقرير السلام ان يعدل الفرسان عن عادتهم في التقاضي الى السلاح وان يقبلوا بعض قضاياهم في محكمة وان يستعاض عن الحروب بقضايا ولذا كان لفظ سلم وعدل من الالفاظ المترادفة في القرون الوسطى ولقد كان للملك في بعض البلاد (مثل نورمنديا وانكلترا ونابل واسبانيا) من الاقتدار ما يستطيع معه ان يكره الفرسان ان يحفظوا السلم للملك او الدوق وحاول الاساقفة في البلاد الاخرى ان يقنعوا الفرسان بتوطيد سلام الله ولكنهم لم يفلحوا ان يؤسسوا محكمة منتظمة .

فاذا اختصم اثنان من ارباب الاملاك فقد يقرر جيرانهما ان يفضوا الخلاف بينهما بواسطة محكمين او ان يكون سيدهما من السلطة بحيث يكرههما على المثول امامه وفي تلك الحال ينظر في الخلاف ضباط قصره وبعض الفرسان المجاورين وهذا ما يسمى محكمة السيد ولكن هذا الفصل متقطع وغير نافذ احيانا لان من يخسر في الحكم لا يمنعه الا ان يعمد الى القتال . فقد كان هوج في القرن الحادي عشر احد التابعين لاسقفية كامبري يستوقف تجار المدن ويقطع عليهم ويطلب الفداء منهم ويخرب قرى الاسقف . فطلبه سيده هذا ثلاث مرات متتابعة ثم مثل بين يديه ولكنه ابى ان يعطي اقل تعويض فحكم فرسان محكمة الأسقف عليه بانه يؤخذ منه اقطاعه فلم يبال هوج بالامر وعاد الى منزله وبعد مدة وقف الأسقف بالذات .

المبارزة — كانت قضية من القضايا التي ينظر فيها الفرسان في محاكمهم اشبه بحرب فمتى اجتمع الخصمان تضارب احدهما وصاحبه ومن فاز ربح القضية وكان يذهب القوم اذ ذاك الى ان الله كتب له الغلبة لانه محق في امره وهذا ما يسمونه بالقتال او المبارزة . والقضاة الذين تتألف منهم المحكمة يعمدون الى ان يحلفوا الخصمين بانهما يزعمان بان مع كل منهما الحق وان يخططوا الارض التي تقع فيها المبارزة وان يراقبوهما . فالمحكمة تأمر بالمبارزة لا عند حدوث جناية او اهانة بل للبت في امر محلة لن تكون وفي اي قاعدة في العدل يجب اتباعها . وقد بارز خصمان في القرن الثالث عشر بامر الفونس ملك قشتالة ليحكم فيما اذا كان يدخل القانون الروماني الى مملكته . وكان الفرسان يعتبرون المبارزة اسهل ذريعة وانجعها للبت في قضية لم يكن اذ ذاك مناقشة تجرى ولا حجة يدلى بها فلا جواب يجاب به الخصم الا القتال .

ولم تؤلف المبارزة فقط في محاكم الفرسان بل في محاكم المدن وبين اهل الطبقة الوسطى واحيانا بين الفلاحين في الحرية فيتساجل الفلاحون بالترس والعصا فاذا كان احد الخصمين ليس

من القوة بحيث يستطيع البراز يعهد الى آخر ينوب عنه فكان القتال يجري في البراز حتى في محكمة الأسقف ولقد وقع شك في هذه العادة فسئل البابا اوجين الثالث رأيه فاجاب عليكم باستعمال عادتكم ·

ولقد أصبحت عادة البراز أصلاً تعذر معه استئصالها ولم يزل البراز في الحياة كأصل ينظر اليه بعد الواسطة الوحيدة في قضايا استرداد الشرف المثلوم فهو كالمروءة بقية مما ابقته القرون الوسطى من عاداتها ولم يبق الا فضل الاباء والمروءة ·

حكم الله — لا يستطيع النساء ان يبارزن وكثيراً ما يمتنع منه الفلاحون وفي تلك الحال يعمد القوم الى استعمال ضرب آخر من ضروب احكام الله · فبعد قداس او صلوات تشتمل على التوسل الى الله ان يظهر الحق كان يقضى على الرجل او المرأة بان يحمل حديدة محماة بضع خطوات او ان يغمس يده في اجانة ماء غالٍ فاذا نجت يده بعد بضعة ايام من الجرح فحكم الله يكون له · واحياناً كانوا يلقونه في مستنقع الماء فاذا غرق فقد ربح واذا عام فقد خسر وقبل ان يلقوه في الماء يستحلف الكاهن الماء بهذا الكلام ايها الماء أنشدك الله القادر الذي خلقك وامرك بان تقوم بحاجات الانسان ان لا تقبل هذا الرجل اذا كان مجرماً بل احمله يطوف على وجهك · واحياناً يكتفون بان يلقم المشتكى عليه لقمة من الخبز والجبن بعد ان يكونوا استحلفوهما بان تبقيا في حلق المشتكى عليه اذا كان كاذباً · وهذه المحن يسمونها الحكم · وقد كتبت الكنيسة كتاباً في الطقوس لكل واحدة منها ولما اجتمع المجمع العام في لاتران سنة ١٢١٥ امر بالغاء هذه الكتب

الكنيسة في القرون الوسطى

تنظيم الكنيسة

الأسقفيات — احتفظت عامة المدن في المملكة الرومانية القديمة بأسقفياتها وابرشياتها · وكلما كانت البلاد في المانيا تدين بالنصرانية كان الملوك ينشئون كراسي اسقفية · ولما كانت الكنيسة كانت تحظر ان تقيم أسقفاً في غير المدينة كان القوم يؤسسون في آن واحد مدينة وأبرشية · وكانت الابرشيات باجمعها قديمها وحديثها غنية جداً لها املاك واسعة وقد تملك احياناً ولاية برأسها وقد منح الملوك الاساقفة براءات يحكمون بموجبها بلادهم بانفسهم · وجاء في صك الاعفاء انه ليس لموظف عام ان يدخل الى ارض هذه الكنيسة لا لجباية خراج ولا للحكم ولا للقبض على العبيد والاحرار الذين يسكنون

فيها ، وبذلك أصبح الأسقف ملكاً حقيقياً فكان أساقفة كولونيا وماينس وتريف ثلاثتهم أكبر الأمراء في ألمانيا.

مجامع الرهبان — خضع قسوس الكاتدرائية (يسمون الكاتدرائية كل كنيسة في حاضرة أبرشية) أولاً للأسقف وأخذوا منذ القرن التاسع يعيشون عيشة مشتركة بحسب القاعدة التي يجري عليها الرهبان ومن هنا أتى الاسم الذي أطلق عليهم وهو كانون (قانون) Chanoine أي الخاضع للقاعدة ومجامعهم هي مجامع الكهنة أو الرهبان . وكان الكهنة القانونيون يعيشون بادئ بدء بما تخصص لهم من العطاء الذي وقفه القوم ثم انقطع نظام العيش المشترك فتحت تلك المخصصات ملكاً وكثيراً ما يكون دسماً ، فكان كل راهب (أو ولي) يتمتع بدخل مخصص يتيسر له به أن يعيش عيشة سيد ، ومن عاش منهم عيشة الكاهن القانوني يعيش في سعة ورفاهية ولما انتخبت المجامع من الأساقفة أصبح القانونيون فيها أبناء النبلاء وحدهم.

الأديار — دامت الرهبنة في القرون الوسطى ولا كان فيها عدة آلاف من الرهبان وكلهم خاضعون للسنة التي سنها القديس بندكت . وكان كل دير قرية تؤلف ديراً مستقلاً رأسه رئيسه ، والدير عبارة عن مساكن الرهبان ، ويشمل الدير كنيسة ودار الضيافة (ينزلون فيها الغرباء) ومعامل ومطاحن وبيوت الخدم والأكارين فكان الدير في الأول كناية عن قرية كبيرة أو مدينة صغيرة (مثل لاريول ومثل كلوني) وللدير أملاك واسعة منتشرة أحياناً في عدة ولايات فيبعث رئيسه إلى الأملاك القاصية بعدة رهبان ليسكنوا تحت إدارة رئيس عليهم وهذه الأديار الصغيرة التابعة للكبيرة تسمى القاعات ، ويحق الحكم لرئيس الدير بجملة الرهبان المقيمين في مجموعه ويكون تحت يده في الأديار الكبيرة رهبان لكل منهم وظيفة مثل مدبر الدير ووكيله وقيم الثياب وقيم الغذاء وقيم الخزانة وقيم الكتب ورئيس المنشدين ومدير المدرسة ، ويعيش الرهبان كلهم مع الأسرة وعليهم أن يلتزموا السكوت إلا بعض الساعات ويجتمعون قبل طلوع الفجر ليقولوا صلاة السحر وعند الإشراق ثم يجلسون بالدرس الأول ثم يجيء وقت القداس والصلوات كالقداس الرئيسي الأول وصلاة النوم . ولما كانت سنة القديس بندكت تقضي بأن يعمل كل راهب كانوا يعانون حرث الأرض أو ملاحظة خدمتهم أو صنع أمتعة الكنيسة أو نسخ مخطوطات . وقد وصف كثير من الرهبان عيشتهم في أديارهم ولكن الصورة تختلف باختلاف في

الدير وفقره وجدته وقدمه وحسن ادارته وسوئها

الخورنيات — لم تكن كنائس ولا قسيسون في غير المدن ايام الرومان ولما عدت البلاد مسيحية كلها أخذ كبار ارباب الاملاك والسادة ورؤساء الاديار والاساقفة ينشئون بيعاً ومعابد في عقاراتهم فيعطي المؤسس لكنيسة قطعة ارض كافية تقوم بنفقات الكنيسة والطعام راهب ويصدق الأسقف على هذا التأسيس وعندئذ يخدم كاهن تلك الكنيسة (يكون لمؤسسها واعقابه الحق في تعيينه) ارواح اهل القرية ويجب على السكان ان يأتوا الى كنيسته ويطيعوه والارض التي يدير شؤونها راهب تألف منها خورنية او ادارة ولما تم هذا العمل (وكان ذلك نحو القرن العاشر في فرنسا) انقسمت جميع البلاد المسيحية الى خورنيات كما هي الى اليوم واصبح لكل قرية كنيسة او تبعت كنيسة القرية المجاورة لها . ودخل الدين الى المزارع الواسعة واستطاع الفلاحون ان يتعبدوا بدون ان يأتوا المدن وغدوا يقيمون صلواتهم في كنائس قراهم حيث يجتمعون وصارت ابراج اجراسهم وقبابها ترى من بعيد وتدعو الاجراس المؤمنين الى الصلاة ولهم اجران معمودية لتعميد اولادهم وقبور ليدفنوا فيها موتاهم وبين اظهرهم كاهنهم يعلمهم الدين ولهم قديسهم او حامي كنيستهم وعيده عيد القرية وكثيراً ما كانت تسمى القرية باسمه .

الحرم — كان رجال الدين في القرون الوسطى اغنى من العامة واكثر تهذيباً وتعليماً منهم ولهم مع هذه قوة لا تغالب وهو انهم كانوا يناولون القربان الذي لا يستغني احد عن تناوله ولم يكن على ذلك العهد ملاحدة واذا حدث احياناً لاحد العامة ان تمرد على الكنيسة او انه أساء الى راهب في حالة غضب فانهم كلهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً في اليوم الآخر ويتوبون ويثوبون لينالوا الغفران وكان رجال الدين يستعملون الاسلحة الروحية كما كانوا يدعونها في تأديب الجناة والعصاة فكان المجرم محروماً أي مطروداً من تناول القربان مع جمهور المؤمنين فكان الاسقف يقول اننا بموجب السلطة الالهية التي منحها القديس بطرس الى الاساقفة ننبذ فلاناً من حجر امه الكنيسة المقدسة فليلعن في المدينة وفي الحقول وفي بيته وعلى كل مسيحي ان لا يكلمه ولا يواكله وعلى اي راهب ان لا يقيم له القداس ولا يناوله القربان وان يدفن كما يدفن الحمار كما ان هذه المشاعل التي القيناها من أيدينا ستنطفئ وان ضوء حياته سيخمد ان لم يتب ويقدم ترضية .

وقد بدئ في القرن الحادي عشر باستعمال الحرم الكنائسي ضد السادة الذين كانوا يزدرون بالحرم فكان رجل الدين يحرم من تناول القربان السيد وحده فلا يعقد عقد زواج في كل أرضه ولا يدفن ميت ولا يقرع جرس ويظل السكان مادام سيدهم كذلك يقضى عليهم أن يصوموا ويرسلوا شعورهم علامة الحداد. وفي هذه الصورة كان رجال الدين يكرهون السادة أن يحترموا القوانين الدينية ويحظرون عليهم الاستيلاء على أرزاق الكنيسة.

إصلاح الكنيسة

اختلاط السلطات — كانت الهوة ضيقة جداً في القرن الحادي عشر بين السلطة الروحية على الأرواح والسلطة الزمنية على الأجسام فلم يكن الأساقفة ورؤساء الأديار رؤساء دينيين فقط بل كانت لهم حصة كبيرة من السلطة السياسية فكانوا بما يملكون من الأملاك يعدون في السادة العظماء أي حكاماً على الأهلين وكان لهم من الفرسان ثم إن القواد والأمراء وكثيراً من رجال السيف كانوا في حاجة إلى رجال الكنيسة في شؤون الحكومة الإدارية فالأساقفة هم الذين كانوا يحررون لهم ذلك الجالسون في قصورهم يكتبون أوامرهم ويلقون الحكام ويحكمون. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قد طمع الأساقفة بأن يشتغلوا عملياً في إدارة الولايات وكان لكثير من الأساقفة في ألمانيا سلطة كسلطة الكونت. وهم مع حصولهم على سلطة سيد من العامة يخضعون لما يخضع به السيد. فهم يعطون ذلك كالكونتية تفرض عليهم أن يقدموا لذلك كالكونتية ما يلزم ويخدموا في الجيش. وكان جيش الملك في ألمانيا مؤلفاً من فرسان أتى بهم أساقفة ورؤساء أديار ولكن الملك كان يضطرهم أحياناً أن يجيبوا الدعوة إلى حمل السلاح بأنفسهم. فقد كتب فيليب الأول إلى رئيس دير سان ميدار أنه موالون أن العادة القديمة تقضي على فرسان الدير أن يحضروا بالنيابة عن رئيس الدير الاشتراك بالحملات الملكية وأن على رئيس الدير أن يخضع لهذه العادة أو يستقيل. فاستقال رئيس الدير وجاء خلفه إلى الجيش.

الفكر السائد أو دائه — كان الأساقفة ورؤساء الأديار في القرن العاشر من أبناء السادات في الغالب والكهنة والقسيسون من أبناء الفلاحين دخلوا في الرهبنة دون ميل منهم بل بمجرد طاعة أهليهم أو الاستمتاع بنعم الكنيسة. فحكموا بأن الى حكمهم بأخلاق العامة فيقضون أوقاتهم في الصيد والشرب واللعب والقتال

ورؤساء الاديار يبددون أموال الدير ليعولوا عصابة من المتشردين وكثير منهم يتزوجون ويقفون كنيستهم على اولادهم . وقد شوهد في نورمانديا كهنة يتنازلون عن دورهم بائنة لبناتهم وكثير منهم كانوا أميين يحرفون كلام القداس بجهلهم وابتاع معظمهم مناصبهم من اناس من العامة وكانوا يبيعونها الى غيرهم من رجال الكنيسة . وتسمى هذه التجارة ببيع المقدسات الروحية (سيمونية) واصبح الاكليريكيون الخاصة جفاة غلاظاً جهلاء طامعين كالعامة وكان يقال ان الكنيسة قد سرى اليها الفكر السائد في ذاك القرن .

رهبنات جديدة — اوجس رجال الكنيسة المخلصون لآدابها خيفة من هذه الفضائح فحملوا ارباب الغيرة منهم على تأسيس رهبانيات جديدة فنجا بعضهم من هذا العالم الفاسد وهربوا الى البادية مثل القديس برونو الذي جاء من شمالي فرنسا وتوغل في جبال دوفينه المتوحشة في بضعة من رفاقه وأسس رهبنة الفلابين (شارتره او الكرتوسيين) وأسس احد عظماء الطليان القديس رومولاد في جبال طوسكانيا رهبنة الكاملدوليين . واراد آخرون استئصال هذه الفضائح مباشرة بادخال رجال الدين تحت قاعدة فبدأوا يشددون في نظام احد الاديار ليكون نموذجاً في اصلاح غيره . واهم مراكز الاصلاح كان دير كلوني اقدم الاديار وقد جرى اصلاحه في القرن الحادي عشر ودير سيتو الذي أسس سنة ١٠٩٤ وكلاهما في اقليم بورغونيا ودير كليرفو المؤسس سنة ١١١٥ او برمونتره المؤسس سنة ١١٢٠ .

ولم يقصدوا بذلك ان يستعيضوا عن القاعدة القديمة التي وضعها القديس بنوا بل على العكس ان يضعوها موضع العمل بانفاذ نظام العمل على الرهبان والطاعة والفاقة عما يطلق في الاديار بما تسرب اليها من افكار ذاك القرن . فمنع مؤسس دير كليرفو القديس برنارد رهبانه من لبس الفراء والدثر والقبعات وقضى بحظر جميع انواع الزينة حتى في الكنائس ولم يسمح بغير صليب من الخشب المنقوش وشمعدان كبير مشعب من الحديد ومباخر من النحاس . وبقي الرهبان كلهم بعد الاصلاح من البندكتيين ونظروا لتوقيف الخلل الذي دخل على ايسر وجه الى دير مستقل ان ترجع للدير المصلح ادارة الاديار المؤسسة او المصلحة على يده . وهكذا اصبحت اديار كلوني وسيتو وبرمونتره زعيمة رهبنة ولم تعد اديار رهبنتها اديارا كبرى بل بيعاً ومعابد تخضع لرئيس واحد وتبعث بمفوضين من قبلها يمثلونها في المجتمعات العامة في الرهبنة . فنجحت الرهبنات

في اسرع ما يمكن فكان لكلوني في القرن الثاني عشر زهاء اربعمائة راهب وينظر في شؤونه الف دير وكان لسيتو تحت طاعتها نحو ١٨٠٠ دير منتشرة في جميع اوربا وعندذلك بدأت المنافسة بين رهبان كلوني السود ورهبان سيتو البيض . وكان هؤلاء الرهبان المصلحون هم الذين اضطروا بقية رجال الدين ان يصلحوا اخلاقهم وهم الذين عضدوا البابا احسن عضد وحملوا المسيحيين كافة عامتهم وخاصتهم ان يحنوا رؤوسهم لسلطته . فقد كان غريغوريوس السابع البابا العظيم المصلح الحاكم من رهبان كلوني والقديس برنارد اللاهوتي العظيم في القرن الثاني عشر من رهبان سيتو .

كان من العادة القديمة في الكنيسة اذا اقر احد المؤمنين بخطيئة ارتكبها ان يقضي عليه القسيس بالتوبة قبل ان يغفر له ويدعه يدخل الكنيسة بين الناس وتجري هذه التوبة علنية اذا كانت الخطيئة ارتكبت كذلك . وكتبت في القرن الثامن كتب توبة فيها العقوبة المقدرة لكل خطأ . ومضت قرون وهذه التوبات مثال القسوة واذلال النفس ففي بعض التوبات التي تطول سبع سنين كان يتحتم عَلَى التائب في السنة الاولى ان يقف حافيًا امام باب المدينة يركع امام الداخلين ويسأل الجمهور ان يصلوا له . والتوبات عبارة عن الصيام وترديد صلوات وضرب البدن بالعصي ثم انتظمت هذه الطريقة فرأى رجال الكنيسة ان ثلاثة آلاف ضربة بالعصا تعادل سنة في التوبة . وقد اشتهر احد تلك الطلبان في القرن الحادي عشر واسمه دومينيك ولقب بالدارع بانه يتمكن في خمسة عشر يومًا ان يقوم بمئة سنة من التوبة واقروا ايضًا عَلَى ابتياع التوبة بالاعمال الصالحة مثل الحج ومنح العطايا الى الكنائس وكانوا يقولون ان للقديسين من الفضائل اكثر مما يجب لخلاصهم وهذه الفضائل الزائدة قد تألف منها كنز الغفرانات التي بها تشترى خطيئات الخاطئين . ولدى الكنيسة هذا الكنز في الغفران تنفق منه عَلَى المؤمنين ويسعها ان تفضل منه عَلَى ارواح الموتى التي يراد تطهيرها وتطلب لقاء ذلك بعض المال . فالخاطئ لا يشتري الغفران (كما قيل ذلك خطأ) بل يبتاع التوبة فقط وبعبارة اخرى ان الكنيسة تعطيها له . هذه هي نظرية الغفرانات . فقد قال داميانوس انا انما نأخذ من اراضي التائبين عنهم كمية من التوبة بحسب ما يعطونا . وعَلَى هذا كانت التوبة نوعين احدهما وهي السهلة (ما ينال بالغفران من البابا والحج) وهذا يكفي الارواح الفاترة واوقات السكون والآخر وهو بربري (ضرب العصي) تطمئن اليه الارواح المتحمسة

وقد كان الغيورون من المسيحيين مثل القديس لويس والقديسة اليزابة يلبسون قميصاً من الشعر ويضربون بعصا بيد من يعترفون له . وفي اوقات الفزع الديني خلال الاوبئة والحروب تألفت عصابات من المضروبين بالعصي يجتازون البلاد واكتافهم عريانة وهم يضربون انفسهم حتى تسيل دماؤهم

انفصال الكنيسة الرومية — مضى دهر طويل لم يؤالف المسيحيون الروم في بلاد الشرق سوى كنيسة واحدة مع مسيحيي الرومان في الغرب فكان لهم عدة بطارقة في الاستانة والاسكندرية والقدس وانطاكية ويعترفون ايضاً بتقدم اسقف رومية ولكن بعد ان فتح العرب مصر وسورية لم يبق في الامبراطورية سوى بطريرك واحد وهو بطريرك القسطنطينية الذي أخذ ينافس البابا . ولما قطع البابا العلائق مع الامبراطور في القرن الثامن بشأن عبادة الصور بدأ المسيحيون الروم ان لا ينظروا الى مسيحيي الغرب اخوانهم وكان بين الفريقين من اهل العالم المسيحي بعض فروق خفيفة في امور التعبد والمعتقد فالروم يعتقدون ان روح القدس لم ينبثق الا من الآب والغربيون يعتقدون انه ينبثق من الآب والابن معاً وان الابن من مادة الآب نفسها . والروم يستعملون الخبز في المناولة والغربيون خبزاً بدون خمير والروم يسمحون بزواج القسوس والغربيون يحظرونه .

وظهرت تلك العداوة الخفية بين الكنيستين جهاراً في القرن التاسع فعزل الامبراطور الخامس بطريرك القسطنطينية واقام عوضاً عنه فوتيوس احد قدماء الساسة والقواد وهو اكثر الناس علماً في زمنه ولم يكن راهباً بل اجتاز درجات الكهنوت كلها في بضعة ايام فتحزب البابا نقولا للبطريرك المقال وحرم فوتيوس واشياعه فجمع فوتيوس في الاستانة مجمعاً حكم على معتقدات اللاتين الخاصة بانها الحاد وحرم نقولا (٨٦٧) فاغتنم البابا فرصة تبديل الامبراطور ليجمع في القسطنطينية مجمعاً مسكونياً (٨٦٩) قضى بعزل فوتيوس وفسخ اعماله . وفي سنة ٨٧٩ فسخ مجمع جديد اوامر مجمع سنة ٨٦٩ واعلن بان البابا ليس مسلطاً على الكنيسة الا في الغرب فاجاب على ذلك بحرم فوتيوس الذي انقطع الى احد الاديار وبدا بذلك ان التقاطع بين الكنيسة اصبح مبرماً ولكن الباباوات في اواخر القرن التاسع اصبحوا في ايدي بارونات رومية فامسوا من الضعف بحيث لا يستطيعون المقاومة في هذا الباب ولما شعر البابا اواسط القرن الحادي عشر بتوطيد مركزه في رومية والغرب بعث بنائبين من قبله يضعان

باحتفال في كنيسة القسطنطينية براءة الحرم الذي صدر من البابا على البطريرك واشياعه (سنة ١٠٥٤) فأبت كنيسة الشرق ان تخضع وظل المسيحيون منذ ذاك العهد منقسمين الى كنيستين الكنيسة اللاتينية او الكاثوليكية التي خضعت للبابا والكنيسة الرومية او الارثوذكسية التي اعترفت ببطريرك القسطنطينية وليس الروم فقط هم اتباع هذه الكنيسة بل الروس والبلغار والصرب والروميون

الالحاد — كان الملاحدة (الهراطقة) الذين متفرقين في القرون الاولى والوسطى فنماوا في القرن الثاني عشر بكثرة ولاسيما في جنوبي فرنسا وشمالي ايطاليا وانقسموا الى شيع مختلفة كثيراً يصعب علينا تمييزها ولا نعرفها الا بما نقله عنها اعداؤها فمنهم من اتصفوا من ملاحدة بلغاريا بمذهب المانوي الفارسي القديم في تنازع الخير والشر وآخرون وهم الكثاريون الاطهار وفقراء ليون الفودويون كان الملاحدة يمقتون مفاسد رجال الكهنوت في عصرهم وزعيم شيعة الفودويين والدوس تاجر غني من اغنياء ليون كان ترجم له الكتاب المقدس باللغة العامية فاعجب عملاً بحكمة الانجيل ان يوزع جميع ما يملك على الفقراء وأخذ يدعو الى الدين على رغم منع الاسقف عليه ذلك وكان انصاره يرفضون كل ما لا يرونه مسطوراً عندهم في التوراة مثل الصور والماء المقدس والقديسين والمطهر والصوم والتقربات وكانوا يقولون ان الكنيسة الرومانية ليست كنيسة المسيح بل كنيسة الشيطان وما الاحبار الا فريسيون يجب ان لا يملكوا شيئاً من حطام الدنيا بل ان يعملوا كما عمل الحواريون وان لا يتزودوا اذ ليس في الكنيسة الحقيقية الا اهل التساوي فالعامة ليسوا دون الخاصة ولهم الحق ان يبشروا كما كان يبشر الرسل والعامي التقي هو اشد عراقة في الرهبنة ويحسن ان لا يتناول القربان من رجال الكهنوت اهل الخطيئات الحاكمين بالكنيسة فسر القربان المقدس والقربانات لا فائدة فيه لان الايمان والتوبة يكفيان في السلامة . وكانت قوة هؤلاء الملاحدة باختلاطهم مع الشعب مباشرة يكلمونه بلسانه ويعيش ويظهر عيش الفقر والشدة خلافاً لاخلاق احد رجال الدين الاغنياء الفاسدين احياناً ولكن معظم المسيحيين كانوا يفزعون من اسم الالحاد وطفقوا عن رضى يساعدون رجال الكهنوت لينقضوا على الملاحدة ودعا البابا فرسان فرنسا الشمالية وأعلن عليهم حرباً صليبية كما اعلنوها على المسلمين فذبحوا جميع سكان بزيه على نحو ما عمل الصليبيون في الشرق من ذبح الرجال والنساء في اورشليم . وقد حرم البابا الامبراطور فردريك الثاني في المانيا وهو نصف عربي

بشدة فحرق كل من اشتبه فيهم انهم ملحدون.

ديوان التفتيش الديني — بعث البابا الى مدن اقليم لانكدوك بموظفين عهد اليهم البحث عمن يشتبه بهم بالالحاد وذلك ليستأصل الملاحدة عن بكرة ابيهم ومنحهم كل سلطة في القاء القبض على كل شخص ومحاكمته والحكم عليه واطلق لهم الحرية ان يعملوا بما يرونه مناسباً مبيحاً لهم ان يغفر بعضهم لبعض اذا بدرت منهم بادرة وهؤلاء المفتشون (وفي العادة ان يكونوا قسوساً) يستقدمون الرجال الذين يرمون بالزندقة ويسألونهم بدون ان يقولوا لهم اسماء من اظهر امرهم فاذا ابى المشتبه به الكلام يسجنونه ويضيقون الخناق عليه ولقد قال احد هؤلاء المفتشين ولطالما رأيت اناساً حبسوا على تلك الصورة سنين كثيرة فانتهى بهم الحال ان اقروا ايضاً باجرام قديمة وعادوا ايضاً لحملهم على الاقرار يستعملون معهم طريقة التعذيب التي تركت منذ عهد الرومان واخذت بالاستعمال عند ظهورهم وكانت محكمة التفتيش تحكم بطريقة عرفية بدون استئناف تحكم على بعضهم بغرامات فاحشة او بحج بعيد وعلى غيرهم ان يحملوا على ثيابهم صلباناً صفراء مخاط عليها فتشعر بانهم مشتبه بامرهم امام القوم ويقضي على الآخرين ان يطوفوا تائبين يحملون العصي للجلاد. وغيرهم يسجنون مؤبداً في مطبق صغير مظلم على خبز الكرب وماء العذاب وبعضهم يحرقون في وقود الحطب وديوان التفتيش لا ينفذ الحكم عليهم بنفسه بل يكتفي بان يدفعهم الى القاضي المدني العامي وهو يدفعهم الى الجلاد.

الرهبان الشحاذون — اصبحت الرهبنات الدينية التي حلت في القرن الحادي عشر على الفساد المستحوذ غنية غنىً فاحشاً فكان رئيس دير كلوني يسيح في موكب مؤلف من ثمانين فارساً والرهبان البيض الذين أرسلوا لتنصير الملاحدة قد حملوهم على العصيان بما رأوه من بذخهم ولذا دعت الحال الى وضع نظام جديد وذلك بما قام به القديس فرنسوا الايطالي والقديس دومينيك الاسبانيولي.

فكان القديس فرنسوا (ولد سنة ١١٨٢) ابن تاجر غني في آسيز تخلى عن المال وراح الى المدن يستوكف الاكف ويدعو الناس. فظنه القوم مختل الشعور ولعنه ابوه ولكن لين جانبه ولطفه وحماسته لم تلبث ان عقدت القلوب على حبه فانجذبت به وجاءه من تلقوا دعوته زرافات لعزمه ان يضم شتاتهم وانشأ رهبنة الاخوان القاصرين (الفرنسيسكان) وكان القديس فرنسوا يعيش عيش النسك يسهر ويصلي ويصوم

ويلبس مسحاً ويزرع رماداً في طعامه لئلا يلذه طعمه ويجلد نفسه كل ليلة بسلاسل من الحديد ثلاث مرات واحدة عن نفسه والاخرى عن أرباب الخطايا الاحياء والثالثة عن ارواح المطهر . ومات منطرحاً على الارض بلا وساد وكان خلاف الجســد مقصوص الجناح راغباً في خلاص غيره يريد ان يكون من جماعته الفرنسيسكان نساك ايضاً فقراء ولكن نساك يعظون بين اظهر الناس يحضونهم على التقوى قال لتلامذته : اذهبوا اثنين اثنين مبشرين الناس بالسلام والتوبة لعفو عن خطيئاتهم . لا تملكوا شيئاً لانفسكم دون الناس كالاطفال والمتوحشين ولكن بشروا فقط بالامانة والتجدد وكونوا على ثقة بان روح الله الذي يحل فيكم يظل ينطق بالسنتكم . وكانت قاعدته بسيطة للغاية وهو ان لايملك الاخوان شيئاً بل ان يعيشوا بما يعطيهم الناس كالحجاج والفقراء يعبدون الله بالفقر والضراعة اليه والصدقات فيرزقون ما يأكلون به ولا يخجلون من ذلك لان السيد المسيح سن لنا سنة الفقر . ولبس الفرنسيسكان لباس الفلاحين وهو عبارة عن ثوب من الصوف الغليظ له قبعة ومن هنا اشتق اسمهم (الكبوشيون) ويلبسون في ارجلهم نعالاً ويتمنطقون بحبل (ومن هنا سموا ايضاً الحباليين) ولا يعيشون الا من الصدقات

وكان القديس دومينيك (ولد سنة ١١٧٠) من النساك ايضاً لا يشرب الخمر ويلبس مسحاً مع سلسلة حديد ومات منطرحاً على الرماد وكان واعظاً وعظ عشر سنين في البلاد الالبية هداية الملاحدة وهناك رأى كيف يطمح الشعب لسماع كلام الله وهو يتألم لما يرى من بذخ رجال الكهنوت . ومن سنة السير على القدم السيرة ساذجة للغاية وأراد ان يكون له فرقة في الامة رسل مبشرون فانشأ جمعية الاخوان الواعظين جعل شأنهم ان يتكلموا في كل مكان بما فيه سلامة الارواح ووضع لهم قاعدة لهم .

وهكذا كان الفرنسيسكان شحاذين فاصبحوا واعظين والدومينيكيون واعظين فاصبحوا شحاذين وكانت الرهبنتان تتشابهان من وجوه كثيرة [1] وكانتا كلتاهما منظمتين بها

---

(١) اقترح القديس دومينيك ان يمزج الرهبنتين فأبى القديس فرنسوا يريد بذلك ان تكون كل رهبنة مثالاً للاخرى وممداً يسوقها الى العمل فكانت الرهبنتان اولاً خصيمتين ومتخاصمتين ولم يجئ القرن الخامس عشر الا واحدثت كل منهما تنكر الاخرى وانتهت الحال بتقاتلهما وتدابرهما

فقد يقودهما بطيع البابا مباشرة ولكن الدومينيكيين كانت علاقتهم بالسادة والملوك أكثر والفرنسيسكان بجمهور الشعب وامتدت كلمة هاتين الجمعيتين امتداداً لا يكاد يصدق فلم تدخل سنة ١٢٧٧ الا وكان للدومينيكيين ٤١٧ ديراً وكان للفرنسيسكان سنة ١٢٦٠ — ١٨٠٨ اديار وفي كل دير اثنا عشر راهباً على الاقل واذ كان اعتمادهم على الله الذي كان مربيهم وخزانتهم كانوا يقبلون في جملتهم من الاخوان كل من جاءهم فمن يقصدونهم يعطونهم ثوباً وحبلاً وما عدا ذلك فيكلون أمره لعناية الالهية. ولقد عاش قدماء الرهبان خارجين عن العالم اما الرهبان الشحاذون فاختلطوا بالمجتمع وأذن لهم البابا ان يبشروا ويعرفوا ويدفنوا فأخذ المؤمنون يهرعون اليهم تاركين قسوسهم العاديين وكان بذلك ثورة عظيمة وطدت سلطة البابا كل التوطيد

عدل الكنيسة -- كان في كل ابرشية منذ القرن الثالث عشر محكمة الكنيسة يجلس فيها مندوب الاسقف يحكم وينظر فيها في عامة القضايا التي لها مساس باحد الاكليريكيين اذ لم يكن يقبل ان عامياً يرفع يده على رجل من رجال الله فالاكليريكي اذا ارتكب جرماً لا يحكم عليه الا مثله وهذا من جملة امتيازات رجال الدين الامتيازات يرغب فيها لان قضاة الكنيسة لا يحكمون بالاعدام بتاتاً وكثيراً ما كان احد الاشقياء فراراً بنفسه من المشنقة يدخل في درجة من درجات الاكليروس ويتعلم صلاة باللاتينية ويظهر بمظهر ديني وقد امتدت سلطة المحاكم الكنائسية على العامة. فالكنيسة التي تدير اسرار القربان المقدس يجب ان تبت في كل المسائل التي لها علاقة بهذا الشأن ومثل هذه المسائل ليست بقليلة . فقد اصبح الزواج منذ ظهور الدين المسيحي سراً من اسرار القربان فيأتي الزوجان في شهودهما يقفان تحت دهليز الكنيسة فيسألهما الكاهن فيما اذا كانا يقبلان بالزواج فيقول الزوج انا يا هذه ارضاك زوجة وتقول العروس انا يا هذا ارتضيتك بعلاً ويأتي اهل المرأة يضعون يدها في يد زوجها ويبارك القسيس خاتم الزواج اشارة العقد ثم يدخلون كلهم الكنيسة (١) فيتلو القسيس القداس على الزوجين الراكعين المستورين بستار خاص وهذه الحفلة جعلت الزواج في يد الكنيسة وكانت تكفي في عهد الرومان ارادة الزوجين لعقد القران كما تكفي ارادتهما لفسخه اما المسيحيون فعلى العكس لا يستطيعون الزواج الا اذا سمحت

---

(١) من عادة الافرنج ان يطيلوا في وصف كل ماله علاقة بهم ولكن سنيوبوس اطال في الشؤون الدينية الخاصة بقومه حتى خرج عن موضوع الحضارة جملة (المعرب)

الكنيسة وكثيراً ما تجاوزته حتى بين الاهل الاقربين اذا لم يكونوا [illegible] واعتبر طول العمر لانه سر الزواج لا يحل ومنعت الطلاق [illegible] الذي [illegible] وتبع الكنيسة الاب [illegible] ولا يحق حل الزواج مطلقاً .

والكنيسة تختص ايضاً في الوصايا لان الرجل كان لا يوصي الا بعد الاعتراف والاعتراف سر من الاسرار وتأمر الكنيسة ان تكون [illegible] وان يوص والعادة التي [illegible] في كل وصية والى [illegible] الكنيسة وارجع جميع القضايا في الوصايا الى محاكم الكنيسة . والكنيسة تحكم ايضاً في القضايا التي تعرض على الفقراء امثال الارامل والايتام [illegible] لان الكنيسة تحمي الارامل ورعاية اليتامى [illegible] من واجب الكنيسة التي تحكم في جميع القضايا وكانت محاكم الكنيسة الى القرن السادس عشر اكثر شأناً من المحاكم المدنية

البابوية

البابوية — البابوات في القرن العاشر كانت سلطة البابوية ضعيفة تحت سلطة العامة من [illegible] الذين لم [illegible] في رومية فكانوا يطلبون بعضهم بعضاً من في [illegible] وبخرجون [illegible] الذي [illegible] فكان الكرسي المقدس ملكاً لأسرة من البارونات [illegible] اسرة تودورا وماروزيا [illegible] في الثانية عشرة من عمره [illegible] البابوية من [illegible] الامبراطور هنري الثالث حداً لهذه الفضائح وذلك بان اخذ الى نفسه تعيين البابوات [illegible] الاصلاح [illegible] ان تكون [illegible] مناصب الكنيسة خاضعة لسلطة رجل من العامة [illegible] الذي [illegible] الامبراطور [illegible] روما [illegible] ولا يجري [illegible] من قبل رجال الاكليروس في [illegible] رومية ثم قرر مجمع لاتران سنة ١٠٥٩ ان يجري انتخاب البابوات في المستقبل بمعرفة [illegible] في [illegible] الرومانية وان [illegible] الامبراطور [illegible] ولكن لم [illegible] وهذه الفائدة في الاكليرس [illegible] رومية والملك الاجانب . [illegible] الكنيسة من [illegible] الزواج [illegible] ومنع [illegible] رومية [illegible]

حقوق الكنيسة — [illegible] القوانين القديمة في الكنيسة ان ينتخب الاسقف

بمعرفة الكهنة القانونيين ورئيس الدير بمعرفة رهبانه واذ كان لكل ابرشية ولكل دير املاك واسعة اعطاها له الملك على سبيل الاقطاع وكان الملك ولا سيما في المانيا يطالب بحق تعيين من يستمتعون بهذه الاقطاعات فاذا مات أسقف او رئيس دير يحمل الكهنة القانونيون او القساوسة الى الملك علامات المنصب الأسقفي او الرئيس وهي العكاز رمز السلطة والخاتم رمز اتحاد الحبر مع الكنيسة فيختار الملك من يريده وفي العادة انه يختار احد رجال الكنيسة في قصره و يحلفه يمين التابعية له و يوليه اسقفية يملكه زمام منصبه بان يدفع اليه العكاز والخاتم . وهذه العادة قد ثار بها المصلحون في الكنيسة . قال البابا اوربانوس الثاني أمن الممكن ان تكون الايدي التي تشرفت بالشرف العالي في ايجاد الخالق (كذا) بحيث يؤول امرها الى العار بالخضوع الى ايد ملوثة بالسلب والدم . وما معنى قبول منصب كنائسي من عامي الا الاتجار بالاشياء المقدسة و بذلك ارتكاب الخطيئة المميتة في بيع هذه المقدسات فطالب البابا من ثم ان يتخلى الامبراطور عن انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار ليكون انتخابهم بحسب القواعد القانونية . وكان الامبراطور يجيب على هذا المقترح بان الارشيات والاديار جزء من الاملاك الامبراطورية وللامبراطور وحده الحق في ان يوليها من اراد . وعلى هذا الوجه ثار بين الامبراطور والبابا خصام على التولية . وانصار البابا في مطاليبه القسيسون وانصار الاصلاح وانصار الامبراطور الاساقفة ورؤساء الاديار في المانيا ولومبارديا اتباعه والقساوسة المتزوجون وعندما احضر أسقف كوار سنة ١٠٧٥ ابلغ رئيس اساقفة ميلانس الامر البابوي في حظر الزواج على القسيسين قام جميع الاكليروس الذين كانوا حاضرين المجلس معاضدين شاقين رئيس الاساقفة ومانعيه من قبول هذا الامر . ودام الاخذ والرد في ذلك نصف قرن (١٠٧٥—١١٢٢) وتعذر التوفيق فيه بسبب حقوق مداخيل الكنيسة او سلطة الاساقفة السياسية وقد حل البابا باسكال الاشكال بان قرر تنازل الاساقفة عن المدن والكونتيات والنقود والمكوس والقصور والاملاك والحقوق التي يعطيها الامبراطور لهم . فلم يرض رجال الاكليروس عن هذا النظام ولما عقد الصلح سنة ١١٢٢ احتفظ الاساقفة بحقوق مداخيلهم وسلطتهم السياسية فسمح الامبراطور بانتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار من قبل الكهنة القانونيين او القسوس وان يعطوهم العكاز والخاتم ولكنه ابقى حق توليتهم بالعلم كالامراء من العامة .

مناوشات البابا مع الامبراطور — كان البابا والامبراطور متفقين على ان يحكموا

مشتركين كما وقع على عهد شارلمان فلم يكن من حاجة لتمييز سلطة احدهما عن الآخر وتحديد حقوق كل منهما وكان يقال ان الله اعطى سيفين سيف السلطة الزمنية للامبراطور وسيف السلطة الروحية للبابا ليحكما العالم معاً ولكن عندما اشتعلت جذوة الخلاف بين البابا والامبراطور اقتضى ان يتساءل الناس ما هي حقوق السلطة الروحية والسلطة الزمنية وعند اي حد تقف . وهي مسألة صعبة لم يتيسر للعصور القديمة ان تحل غوامضها ولا تزال تناقش فيما بعد تحت اسم صلات الكنيسة بالحكومة

ولقد كان الناس في القرون الوسطى يتساءلون اهما سلطتان متساويتان مستقلتان وهل البابا او الامبراطور هو الذي يتحكم على الآخر وكل منهما يزعم ان سلطته دينية سامية فكان الامبراطور وارث القياصرة والملقب بالالهي يطالب بحق الزعامة على العالم اجمع والبابا يقول ان الله اعطاه في القديس بطرس الحق المطلق ان يحل ويربط في السماء وعلى الارض لم يستثن احداً بل اخضع اليه الامراء وجميع دول العالم وولاه اميراً على ممالك الدنيا . والبابا اسمى مقاماً من جميع الامراء وهو القاضي في وسعه اذا رآهم غير لائقين للحكم ان يخرجهم ويعزلهم وان يحل رعاياهم في حل من اخلاص اليمين لهم . وقد نفذ غريغوريوس السابع هذه الحكمة بعزل هنري الرابع . فطال الخصام بين السلطتين مبدأ في القرن الثاني عشر على التولية ودام بشأن حقوق الامبراطور على مدن لومبارديا الى سنة ١٢٥٠ فغلب الامبراطور لان سلطته على العالم وهمية ولم تكن له سلطة الا في المانيا وايطاليا ثم انه عاجز عن ان يبذل له الطاعة امراء الالمان ومدن الطليان

نفوذ البابا — اصبح البابا في القرن الثالث عشر وبعده رجال الكهنوت الذي قوي بالاصلاح والتهذيب زعيم العالم المسيحي بلا منازع فهو بصفته نائب المسيح يحكم على رجال الاكليروس كافة وهؤلاء يحكمون على جمهور المؤمنين وحفظ لنفسه الحق ان يجمع المجامع ويعزل الاساقفة ويغفر لكبار المجرمين ويعطي ما يلزم من النفقات ويتناول القربان على عرش عال ويقبل جماعة رجليه ولرسائله قوة الشريعة في الكنيسة كلها واليك كيف تحدد سلطته قال اينوسان الثالث : لقد وضع الخالق في سماء الكنيسة منصبين اعظمهما البابوية وهي تحكم على الارواح كما تحكم الشمس على النهار واقلهما الملك وهو على الاجسام كالقمر في الليل فالبابوية مفضلة على الملك كما تفضل الشمس القمر . وقد عهد سبحانه وتعالى الى القديس بطرس ان يحكم لا الكنيسة العامة فقط بل العالم فكان ان جميع

عقوبات السماء والأرض والتغطيس في [illegible] ثم [illegible] هكذا كانوا يحاولون ان يخضعوا الناس حتى لا يكون في الارض سوى سلطان واحد ورئيس واحد.

وقد كتب بونيفاس الثامن سنة ١٢٩٦ الى ملك فرنسا يقول اسمع يا بني كلام اب [illegible] [illegible] وانك بعد ذلك غير خاضع لزعيم رجال الدين. وكتب سنة ١٣٠٢ في المنشور الشهير ان الكنيسة واحدة في جسم واحد ليس له الا رأس واحد لا رأسان كالمسخ وهذا الرأس هو خليفة المسيح وبطرس [illegible] لا الجيل ان في الكنيسة سيفين زمني وروحي تستعمل الكنيسة ويد البابا احدهما والثاني الكنيسة ويد الملوك بامر البابا

[illegible] الاولى وليس في الكنيسة سوى قوانين اي قواعد وضعتها المجامع وعندما عرف البابوات [illegible] على جميع رجال الاكليروس اصبحت اوامرهم قوانين الكنيسة على نحو ما كانت اوامر الامبراطور الروماني شرائع المملكة وقد جمع كراتيان الراهب الايطالي في القرن الثاني عشر الاوامر التي اصدرها البابوات وألف منها كتاباً سماه الديكري اي الامر [illegible] البابوات في القرن الثالث عشر عدة مجاميع جديدة مؤلفة من رسائل البابوات التي ظهرت بعد جمع الرسائل الاولى وهكذا فكما ان يوستنيانوس ألف مادة الشريعة المدنية ألف البابوات مادة الشريعة القانونية التي ظلت شريعة الكنيسة

المدنية الشرقية في الغرب

تقدم شعوب الشرق في القرون الوسطى — يدهش القارئ تقدم المدنيتين اللتين كانتا في القرن الحادي عشر [illegible] العالم المتمدن في الغرب مدن حقيرة صغرى واكواخ [illegible] [illegible] و بلاد [illegible] في [illegible] لا يتأتى ان يسكن فيها اكثر من عشرة آلاف [illegible] في الشرق مدن قسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد [illegible] من قصور الرخام والمنازل والمدارس والأسواق والحدائق [illegible] [illegible] والصناعة وحركة التجارة التي [illegible] من اسبانيا الى فارس ولا شك ان العالم الاسلامي والعالم البيزنطي كانا اكثر تمدناً وثروة من عالم الغرب في [illegible] [illegible] الصليبية [illegible] من [illegible] الشرق [illegible] يحب [illegible] الغرب [illegible] الغربية والشرقية في القرن

الحادي عشر [illegible] ودخل السلجوقيون [illegible] الى حين [illegible] مدافعين من طريقين الحرب والتجارة .

الحروب الصليبية — انتهى السلجوقيون من [illegible] القدس فشرع النصارى بجهادهم وكانت تلك الحروب الصليبية . وقد دعا الى الحرب الصليبية البابا اوربانوس الثاني في كليرمون وكان فرنسويًا . وكان يقصد من هذه الحروب انقاذ البيت المقدس (اي قبر المسيح) من ايدي غير المسيحيين [illegible] يحملون في اكتافهم صليبًا او صليب البابا . ومن هنا اشتق اسم الصليبيين . وكان [illegible] البابا كل من يشترك بهذه الحملة ان يعفو عنه من كل [illegible] التي [illegible] وانضم الى هؤلاء الناس [illegible] من تجار [illegible] وانشأوا من [illegible] الصليبيين [illegible] سورية [illegible] الامارات (كانت تسمى الافرنج)[1] وفي سنة ١٢٠٤ [illegible] حملة الى القسطنطينية وانشأوا امبراطورية [illegible] ولقد بدأت هذه الحرب اواخر القرن الثاني عشر ودامت الى القرن الثالث عشر [illegible] حتى القرن الخامس عشر [illegible] وكانت آخر حملة من حملات الصليبيين في اسبانيا سنة ١٤٩٢ [illegible] أخذ غرناطة .

صفة الحروب الصليبية — كانت الحروب الصليبية حملات مؤلفة من المسيحيين [illegible] البابا [illegible] العام فكان كل صليبي [illegible] الكنيسة من جميع الذنوب التي [illegible] فيها فكان الصليبيون يجتمعون جماعات حول السادات القادرين [illegible] ولكن [illegible] ان ينتقلوا من جيش الى آخر او ان يتركوا الحملة متى [illegible] تم . فالجيش الصليبي لم يكن سوى اجتماع عصابات تسير الى مقصد واحد من طريق واحد فكانوا يسيرون مشوشًا نظامهم [illegible] والجيش [illegible] لا [illegible] يحملون الاثقال [illegible] يموتون [illegible] الاسعار [illegible] فرسان الاتراك في آسيا الصغرى والرجال والخيول تموت في القفار [illegible] وكانت الاوبئة التي تحدث [illegible] المعسكرات [illegible] من قلة [illegible] بعد

---

(١) [illegible] العرب جميع [illegible] الافرنج [illegible] مملكة الافرنج

الإفراط في الطعام والشراب تخمد ارواحهم بالالوف . وكان من يبلغون سورية قليلاً عددهم ففني الرجال اي فناء في القرن الثاني عشر على هذه الصورة على طريق الارض المقدسة فضيّق صدر الصليبيين من هذه الرحلات القتالة في البر واخذوا يعدلون عنها وفي القرن الثالث عشر قصدوا كلهم البلاد المقدسة من طريق البحر فكانت السفن الايطالية تقلهم وتحملهم الى الارض المقدسة في بضعة اشهر حيث يجاهدون الجهاد الحقيقي

كان الفرسان في قتالهم المسلمين اذا تساوى عدد المقاتلين قد يكتب النصر لهم وذلك لانهم كانوا بخيولهم الضخمة وسلاحهم الذي لا يأتي حرفه يؤلفون كتائب متراصة لا يستطيع فرسان العرب الراكبون على خيول صغيرة ان يخرقوها بسهامهم وسيوفهم . نعم ان حروبهم لم تسفر عن نتيجة فعاد الصليبيون القاهرون الى اوربا ورجع المسلمون . وهذه الجيوش المتقطعة كانت تستطيع فتح الارض المقدسة ولكنها لم تكن تحفظها بيد انه كان بالنظر الى أهل الصليب الذين اتوا للنجاة بانفسهم من الخطايا رجال من الفرسان والتجار الذين قصدوا البلاد ليقيموا فكانوا يعنون بحفظ البلاد وبهؤلاء كتب التوفيق الدائم في الحروب الصليبية بخلافهم القوة الموقتة التي كان يوليها سواد الصليبيين . فكانوا يديرون الاعمال الحربية وينشئون ادوات الحصار ويأخذون المدن يحصنون فيها بحيث يقاومون عودة العدو . ولو ترك اولئك الصليبيون وانفسهم لما استطاعوا ان يحتفظوا في تلك البلاد القاصية بتلك الحملات ذات الأبهة التي كان الملوك قوادها (مثل لويس الثاني عشر وكوراد وفريدريك بربروس وفيليب الجسطس وريك الجر وسان لوي) فقد اخفقت كلها اخفاقاً ذليلاً . والحروب الصليبية الوحيدة التي نجحت حقيقة (الاولى التي فتحت سورية والرابعة التي فتحت امبراطورية الروم) وكان قواد الاولى النورمانديون من ايطاليا والاخرى البنادقة . وكانت حماسة الصليبيين وشجاعتهم قوة عمياء لا ينتفع بها الا اذا كان المديرون لها اناساً من اهل الخبرة . وما كان الصليبيون سوى مقاتلين والمؤسسون الحقيقيون للمالك المسيحية هم المتشردون والتجار ممن كانوا يشبهون المهاجرين المحدثين الذين كانوا يسافرون لاستيطان الشرق . وما كان هؤلاء المهاجرون قط من الكثرة بحيث تأهل بهم البلاد التي نزلوها متخذين لهم مستعمرات بين اهلها الوطنيين ولم تكن الامارات الافرنجية سوى عبارة عن حكم أشراف يقوم به بضعة الوف من الفرسان الفرنسويين والتجار الايطاليين فليس لها من تماسك الاجزاء ما كان

لممالك العرب التي تستند على الامراء والشعوب . فاشبهت هذه الامارات الممالك التي أسسها زعماء الغار بين العرب او الاتراك حيث تندمج الحكومة بالجيش وتهلك وإياه . وطال عمر هذه الامارات قرنين وهي حياة تعد طويلة في الممالك الشرقية ولو تيسرت هجرة قوية لما توحدت أسسها إزاء آسيا الاسلامية والبيزنطية ولكن اوربا في القرون الوسطى لم تستطع ان تقوم بهذه المهاجرات

مضى نصف قرن ولم يشتغلوا بغير حرب صغار الامراء في سورية وكان سلطان مصر يعيش معهم بسلام . وهذا زمن نجاحهم ولما أتى صلاح الدين على الخلافة بمصر فقرضها وأقام بدلاً منها حكومة عسكرية في القاهرة هوجم الصليبيون من جهة مصر فلم يستطيعوا ان يقاوموا زمناً طويلاً كما دلت على ذلك انتصارات صلاح الدين فاذا كانوا احتفظوا بممالكهم قرناً آخر فذلك لان السلاطين لم يحرصوا ان يبيدوهم . لاجرم ان هذه الحروب كانت في نظر المسلمين كما هي في نظر المسيحيين جهاداً مقدساً ولكنها انقطعت بمهادنات بضع سنين ولا ينبغي لنا ان نتصور جميع أمراء المسيحيين متحدين على أمراء المسلمين بل كانت المصالح السياسية أشد قوة من العواطف الدينية وما برح أمراء النصارى يتقاتلون بعضهم مع بعض كأمراء المسلمين يقتل بعضهم بعضاً وقد حدث ان اميراً مسيحياً تحالف مع امير مسلم على امير مسيحي . وما قط كان الاتفاق تاماً في جيش النصارى للحماسة التي كانت تجمعهم لم تأت على منافستهم في التجارة ولا على تباغضهم الجنسي وكان النزاع دائماً بين الأمراء من مختلف الاجناس الفرنسيين والالمان والانكليز بين تجار جنوة وتجار البندقية بين الداوية والاسبتالية (فرسان الهيكليين والمقربين) وكثيراً ما تقاتلوا . ومثل ذلك من الخلاف بين الصليبيين القادمين من اوربا والافرنج المقيمين في سورية . ولقد اتخذ الافرنج عادات الشرقيين لما عاشوا بين اظهرهم فاستعملوا الحمامات والاقمشة المسترسلة وتعلموا عادة المسلمين في الطريقة الاسلامية وابتدأوا يعاملون المسلمين معاملة المجاورين ولا يحاربونهم بدون داع . واراد فرسان الغرب القادمين وقد ملئت صدورهم غيظاً على المسلمين ان يبيدوا كل شيء وقد حنقوا من هذا التسامح فكانوا اذا خرجوا من البحر ينقضون على الارض الاسلامية ويهرعون للقتال والنهب وكثيراً ما كانوا لا يستمعون لما ينصح لهم به مسيحيو البلاد الواسع اختبارهم في الحرب في الشرق اكثر منهم . ولقد وصف مؤرخو العرب نصارى الارض المقدسة بالنذالة والخديعة والفساد ونسبوا اليهم خراب ممالك سورية . وليت شعري ماذا يكون

من الصدق في هذه التهم ؟ لا جرم ان هؤلاء المشردين من الاقربين اذا عادوا الى مسرع وحده واخلدوا يعيشون في مدنه احتكاكهم بالشعوب فاسدين فسرت اليهم مفاسد كثيرة ولا سيما من قضى منهم في سورية وكانوا بدءوا بهم [illegible] ولكن المصيبين لم يكن لهم من ادراكه ما يجوز صدور مثل هذه الاحكام فانهم القسم الاعظم قد اخذوا من الغاب اكثر مما اخذت نصارى سورية بقرونهم

ياشرق

لا الصبر ينفعه ولا الجزع   قلب يكاد شجاه ينخلع
يا ليل هذا ساهر قلق   يرعى النجوم وقومه هجعوا
هل بات ذو شجن يشاركني   اشكو له حالي فيستمع
سرت الهموم فشمت ادمعا   واذا الهموم [illegible] الدمع
حتى يصغر [illegible] الاعادة   [illegible] منها [illegible]
من بات تدمع عينه اسفاً   فانا فؤادي بات يدمع
انفقت من دهري الى امسي   واليوم [illegible] كيف ينقطع
ولي [illegible] يخدعني   [illegible] والخدع

. .

ياشرق [illegible] هوى   ياشرق أغراك [illegible] الطمع
وبنوك قد [illegible] كل حق   ترى سواد الناس قد طبعوا
[illegible] بينهم [illegible]   [illegible] فيه وهم شيع
يفترقون الى مذاهبهم   وفي الاخاء الناس تجتمع
[illegible] تعصبهم   والله لو عقلوا لما خضعوا
الشرع [illegible] سواده   [illegible] الافلاك تتصدع
داويتهم زمناً [illegible]   [illegible] السهام [illegible] وينتزع
[illegible] بالامس اذ [illegible]   واليوم ارثيهم وقد وقعوا
هديتهم ودي فما قبلوا   اطعمتهم نصحي فما اتبعوا

والشيء يرخص حين تبذله   والشيء يغلو حين يمتنع

...

فاذا بني الاقدار لو نزعت   عن حربها قصداتها زعموا
واسترجعت عهد الصفاء لهم   واذا شاء فذلك يرتجع
قد اجهدتهم وهي عادمة   والقتها يوماً سترتدع

...

أبني بلادي قد مضت أمم   هذا طريقهم الذي اشترعوا
انا خلفنا في منازلهم   وقد انتجعنا حيثما انتجعوا
ولئن بطرنا مثلما بطروا   فلسوف نصرع مثلما صرعوا
ان تصبروا فلطالما صبروا   او تجزعوا فلشد ما جزعوا
لم تعدنا حال لهم عرضت   لحياتهم وحياتنا شرع
ابداً نعيش على مشابهة   الدهر يخفضنا ويرفع
ونراه يبتدع الخطوب لنا   حتى تفانت عنده البدع
لم تنفع تجارب سلفت   واخال لسنا بعد ننتفع
اشياخنا يمشي بهم كلف   وشبابنا يجري بهم ولع
يتحاربون على توادهم   والحرب تأخذ ضعف ما تدع
ما ذا لهم فقه ودرهم   الناس قد عفوا وهم جشعوا
ان القصور بهن مقتعد   مثل القبور بهن مضطجع

...

أبني المسيح واحمد أتقوا   ودعوا رجالاً منكم جمعوا
ساؤوا الورى والامر ملتئم   ثم أنثنوا والامر منصدع
لم يرض احمد والمسيح بما   صنعوا فلا تردوا بما صنعوا
أرواحكم من بعضها قطع   وجسومكم من بعضها بضع
لاتحسبن خلافكم ورعاً   ان ائتلافكم هو الورع
الملك تعليه مدارسه   تلك المساجد فيه والبيع
ويحب تموز (لعاشره)   لاتذكر الآحاد والجمع

...

لمن الطلول كأن عرصتها – للموت مسرح ومزدرع
آياتها ورسومها درست – وعلا بها مشتى ومرتبع
سكانها عن عهدها نزحوا – ولطالما في خصبها رتعوا
أسلافهم في حجرها نشأوا – وبنوهم في سوحها رتعوا
شمخ الزمان بهم وقد شمخوا – واليوم يخشع اذهم خشعوا
قد زال عنه الصفو اجمعه – وثاب فيها الازلم الجذع
كم عاش في آجامها بطل – كالليث لا وان ولا ظلع
شثن تجرد من مفاضته – يلقي الدجى درعا فيدرع
يلقى الردى والبيض مصلتة – واسنة الخطي تشترع
والخيل تعدو في اعنتها – والنطق منطلق ومنقشع
تمشي الاباطح منه في ملك – يسمو الجلال به فيتضع

• • •

حتام هذا الجهل مطرد – ولنا من ذلك الهم منبع
تمضي الجدود بنا فيدركها – من خلفها عجز فترتجع
وكأن رب الشعر في يده – سيف على الاعناق يلتمع
ما يرتجي الاحرار من زمن – يزداد تيها كلما صرعوا
اوصى على القهر مرتقبا – يتسابقون به ويقترع
ان بلغوا غاياتهم هتفوا – او قصروا من دونها جزعوا
هل نحن هذا الافق من امم – جرعت كؤوسهم التي جرعوا
أحشاؤهم حرى فما ابتردوا – وكبودهم ظمأى فما انتقعوا
انا لاقوام لنا همم – للمجد تدفعنا فنندفع
العمر اهون ان يضيق بنا – والموت للاحرار متسع

القاهرة ولي الدين يكن

اداب الدارس والمدرس

من استقرأ ما كتب في هذا الباب الواسع قديماً وحديثاً يرَ عدداً من المؤلفات والمقالات لا يأتي عليها الحصر، ولا يخفى ان لروح كل عصر مظهراً فيما كتب في واجباته ومطالبه، وكثير منها تبدل بتغير الشؤون الداعية الى ما هو اهم منها او اختلاف العادات في اطوارها وشؤونها الا ان ما يتقاضاه العلم من آداب القائمين عليه درساً وتدريساً تتلاقى اصوله مع كل زمان ومكان، ولما رأيت من المهم نقل ابدع ما كتب في هذا الباب، اذ الامة لا تبلغ اوج المجد الا بالعلم ولا علم الا بصلاح الدارس والمدرس والعالم والمعلم اذ هم القائمون على تهذيب الملكات وارشاد العقول، والهادون الى صراط الحق وميزان العدل والصدق

وقد رأيت من احسن ما جمع في مقاصد هذا البحث الجليل ما أورده محيي الدين النووي — احد ائمة الرواية والدراية الشاهير — في مقدمة (شرح المهذب) فآثرت عنه خلاصة مأثوره عن اساطين الحكمة المتقدمين وجعلته مقالة موجزة

احكام درس العلوم الشرعية — انواع العلوم الشرعية لا تعد وفي احكامها ثلاثة اقسام

القسم الاول فرض العين منها ويقال له الضروري وهو درس المكلف ما تصح به عقيدته وتجزئ معه عبادته، وتنعقد عقوده ومعاملته، وما لا غنى له عنه مما يتناوله ويستعمله

ويدخل في ذلك درس امراض القلب كالحسد والعجب والبخل وامثالها من المهلكات فقد قال الغزالي: معرفة حدودها واسبابها وطبها وعلاجها فرض عين:

القسم الثاني فرض الكفاية ويقال له الحاجي وهو درس ما لا بد للناس منه في اقامة دينهم كحفظ القرآن والاحاديث وعلومهما والاصول والفقه والنحو واللغة ومعرفة رواة الحديث والاجماع والخلاف

ومنه ما يحتاج اليه في قوام امر الدنيا كالطب والحساب والهندسة

ومنه تعلم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالزراعة ونحوها

القسم الثالث النفل ويقال له التحسيني وهو كالتبحر في اصول الادلة والامعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية والتوسع في فنون الادب والمعقول

آداب المدرس

اهم مايطلب منه ان يتحلى به ادبه في نفسه وادبه في درسه

القسم الاول ادبه في نفسه — وذلك في امور (منها) ان يقصد بتعليمه وجه الحق سبحانه وتعالى لاتوصلاً الى غرض دنيوي كمال او جاه او شهرة او تكثير المختلفين اليه او نحو ذلك كما كان عليه سلف الامة فقد قال الشافعي رحمه الله : وددت ان الخلق تعلموا هذا العلم على ان لاينسب اليّ حرف منه : وقال ايضاً : ما ناظرت احداً قط على الغلبة ووددت اذا ناظرت احداً ان يظهر الحق على يده :

(ومنها) ان يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها وحث عليها والخلال الحميدة والشيم المرضية التي ارشد اليها كالحلم والصبر والسخاء والجود وطلاقة الوجه من غير خروج الى حد الخلاعة وملازمة الورع والوقار والتواضع والتنظف في البدن والثياب

(ومنها) الحذر من الحسد والرياء والاعجاب وتزكية النفس وازدراء الناس وان كانوا دونه بدرجات

(ومنها) انه اذا ترخص في امر جائز وخيف ان يظن خلافه ان يخبر اصحابه ومن يراه حقيقة ذلك الفعل لينتفعوا ولئلا يأثموا بظنهم السيء

القسم الثاني ادبه في درسه — وذلك ان لايزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم قراءة ومطالعة وتعليماً ومباحثة ومناظرة وتصنيفاً

وان لايستنكف من التعلم ممن هو دونه في سن او نسب او شهرة او دين او في علم آخر بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده وان كان دونه في جميع هذا

وان لايستحي من السؤال عما لم يعلم روي عن امير المؤمنين عمر انه قال : من رق وجهه رق علمه : وروى البخاري عن عائشة ام المؤمنين قالت : نعم النساء نساء الانصار لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن في الدين :

وان لايمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لايعرفه فقد كان كثير من السلف يستفيد من تلامذته ماليس عنده ، قال الامام النووي : قد ثبت في الصحيح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين وروى جماعات من التابعين عن تابعي التابعين ، وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعياً وروى عنه اكثر من سبعين من التابعين ، وثبت في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ لم يكن الذين كفروا على أبيّ بن كعب

وقال امرني الله ان اقرأ عليك : ويسمى هذا النوع رواية الاكابر عن الاصاغر

وان تكون ملازمة الاشتغال بالعلم في مطالعة ورأس ماله فلا يشتغل بغيره فان اضطر الى غيره في وقت فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم

ادبه في تصنيفه

قال النووي : ينبغي ان يعتني بالتصنيف اذا تأهل له فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه ويثبت معه لانه يضطره الى كثرة التفتيش والمطالعة ، والتحقيق والمراجعة ، والاطلاع على مختلف كلام الائمة ومتفقه ، وواضحه من مشكله ، وصحيحه من ضعيفه ، وجزله من ركيكه ، وما لا اعتراض عليه من غيره ، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد

وليحذر كل الحذر ان يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له فان ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه

وليحذر ايضاً من اخراج تصنيفه من يده الا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره

وليحرص على ايضاح العبارة وايجازها فلا يوضح ايضاحاً ينتهي الى الركاكة ولا يوجز ايجازاً يفضي الى المحق والاستغلاق

وينبغي ان يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق اليه اكثر والمراد بهذا ان لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع اساليبه فان اغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها مع ضم ما فاته من الاساليب

وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج اليه

آداب تعليمه

التعليم هو الاصل الذي به قوام الدين والدنيا وبه يؤمن امحاق العلم وفي التنزيل الحكيم « واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ليبلغ الشاهد منكم الغائب »

يجب على العالم ان يقصد بتعليمه وجه الله تعالى ، وان لا يجعله وسيلة الى غرض دنيوي لان ما كان خالصاً كان مستمراً نفعاً في كل حين وما كان لغرض زال عند الظفر به ففات ما قصد له

ولا يمتنع من تعليم احد لكونه غير صحيح النية فانه يرجى له حسن النية . وربما

عسر في كثير من المبتدئين تصحيح النية فالامتناع من تعليمهم يؤدي الى تفويت كثير من العلم مع انه يرجى له تصحيحها اذا انس بالعلم وقد قال بعض السلف طلبنا العلم لغير الله فابى ان يكون الا لله ، معناه كانت عاقبته ان صار لله

وينبغي ان يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية والشيم المرضية، ويحرض على الاخلاص والصدق وحسن النية

وينبغي ان يرغبه في العلم ويذكره بفضائله وفضائل العلماء

وينبغي ان يحنو عليه ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح نفسه وولده ، ويجريه مجرى ولده في الشفقة عليه والاهتمام بمصالحه ، ويعذره في سوء أدب وجفوة تعرض منه في بعض الاحيان فان الانسان معرض للنقائص

وينبغي ان يكون سمحاً يبذل ما حصله من العلم سهلاً على مبتغيه متلطفاً في افادته طالبه مع رفق ونصيحة وارشاد الى المهمات وتحريض على حفظ ما يبذله لهم من الفوائد .

ولا يدخر عنهم من انواع العلم شيئاً يحتاجون اليه اذا كان الطالب اهلاً لذلك

ولا يلقي اليه شيئاً لم يتأهل له لئلا يفسد عليه حاله فلو سأله المتعلم عن ذلك لم يجبه ويعرفه ان منعه ليس شحاً بل شفقة ولطفاً

وينبغي ان لا يتعظم على المتعلمين بل يلين لهم ويتواضع وفي التنزيل الكريم « واخفض جناحك للمؤمنين »

وينبغي ان يكون حريصاً على تعليمهم مهتماً به مؤثراً له ويرحب بهم عند اقبالهم اليه ويظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ويحسن اليهم بعلمه وماله وجاهه ، ولا يخاطب الفاضل منهم باسمه بل بكنيته

وينبغي ان يتفقدهم ويسأل عمن غاب منهم

وينبغي ان يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم وتقريب الفائدة الى اذهانهم حريصاً على هدايتهم

ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه فلا يعطيه ما لا يحتمله ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة ، ويخاطب كل واحد على قدر درجته وبحسب فهمه وهمته ، فيكتفي بالاشارة لمن يفهمها فهماً محققاً ويوضح العبارة لغيره ، ويكررها لمن لا يحفظها الا بتكرار .

ويذكر الاحكام موضحة بالامثلة من غير دليل لمن لا يحفظ له الدليل فان جهل دليل بعضها ذكره له ويذكر الدلائل لمحتملها

ويذكر مايرد على المسألة وجوابه ان امكنه

ويبين الدليل الضعيف لئلا يغتر به فيقول : استدلوا بكذا وهو ضعيف لكذا ويبين الدليل المعتمد ليعتمد

وينبههم على غلط من غلط فيها من المصنفين فيقول مثلاً : هذا هو الصواب واما ما ذكره فلان فغلط او فضعيف قاصداً النصيحة لئلا يغتر به لا لتنقيص القائل فان الانتقاد انما يكون للقول لا لقائله

ويبين له جملاً من اسماء المشهورين من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين فمن بعدهم من الائمة والمشاهير وانسابهم وكناهم واعصارهم وطرف حكاياتهم ونوادرهم ، وضبط المشكل من انسابهم وصفاتهم ، وتمييز المشتبه من ذلك ، وجملاً من الالفاظ اللغوية والعرفية ضبطاً لمشكلها وخفي معانيها فيقول هي مفتوحة او مضمومة او مكسورة مخففة او مشددة ، مهموزة او لا ، عربية او اعجمية او معربة وهي التي اصلها عجمي وتكلمت بها العرب ، مصروفة او غيرها ، مشتقة او لا ، مشتركة ام لا ، مترادفة ام لا ، وان المهموز والمشدد يخففان ام لا ، وان فيها لغة اخرى ام لا

واذا وقعت مسألة غريبة لطيفة او مما يسأل عنها في المعاياة نبهه عليها وعرفه حالها في كل ذلك ويكون تعليمه اياهم كل ذلك تدريجاً ليجتمع لهم مع طول الزمان جمل كثيرات .

وينبغي ان يحرضهم على الاشتغال في كل وقت ويطالبهم في اوقات بمحفوظاتهم ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات فمن وجده حافظاً مراعياً له اكرمه واثنى عليه واشاع ذلك ومن وجده مقصراً لامه ويعيده له حتى يحفظه حفظاً راسخاً

وينبغي ان ينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وان كان صغيراً

وينبغي ان يقدم في تعليمهم اذا ازدحموا الاسبق فالاسبق ويتحرى تفهيمهم بايسر الطرق ويذكره مترسلاً مبيناً واضحاً ويكرر ما يشكل من معانيه والفاظه حتى يفهموه ، واذا لم يكمل البيان الا بالتصريح بعبارة تستحى في العادة من ذكرها فيذكرها بصريح اسمها ولا يمنعه الحياء ومراعاة الادب من ذلك فان ايضاحها اهم من ذلك ، وانما يستحب الكناية في مثل هذا اذا علم بها المقصود علماً جلياً وعلى هذا التفصيل يحمل

ماورد في الاحاديث من التصريح في وقت والكناية في وقت ، ويؤخر ماينبغي تأخيره ويقدم ماينبغي تقديمه ، ويقف في موضع الوقف ، ويصل في موضع الوصل

ويحسن خلقه مع جلسائه ويوقر فاضلهم بعلم او سن او شرف او صلاح ، ويتلطف بالباقين .

وينبغي ان يصرف يديه عن العبث وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة ، ويعم الحاضرين بالتفاته ويجلس في موضع يبرز وجهه لهم

ويقدم من دروسه أهمها فيقدم التفسير ثم الحديث ثم الاصولين ثم الاهم فالاهم ، ولا يقرأ الدرس وبه مايزعجه كمرض او جوع او مدافعة الحدث او شدة فرح او غم

ولا يطيل مجلسه اطالة تملهم أو تمنعهم فهم الدرس أو ضبطه ، وليكن مجلسه واسعاً

ولا يرفع صوته زيادة على الحاجة ولا يخفضه خفضاً يمنع بعضهم كمال فهمه

ويصون مجلسه من اللغط والحاضرين عن سوء الادب في المباحثة ، واذا ظهر من أحدهم شيء من مبادىء ذلك تلطف في دفعه قبل انتشاره ويذكرهم ان اجتماعنا ينبغي ان يكون لله تعالى فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة بل سبيلنا الرفق والحياء واستفادة بعضنا من بعض واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة

واذا سأل سائل عن أعجوبة فلا يسخرون منه

واذا سئل عن شيء لا يعرفه او عرض في الدرس ما لا يعرفه فليقل لا أعرفه او لا أتحققه ولا يستنكف عن ذلك فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : ياايها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله اعلم فان من العلم ان يقول لما لا يعلم الله اعلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل ما أسألكم عليه من أجر وما انا من المتكلفين » رواه البخاري

قالوا : وينبغي للعالم ان يورث اصحابه لا ادري : معناه يكثر منها ، ولا يضع ذلك من منزلته بل يدل على وفور عقله وعظم محله لان المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة ، وانما يمتنع من لا ادري من قل علمه وقصرت معرفته وضعفت تقواه لانه يخاف لقصوره ان يسقط من أعين سائليه او سامعيه وهو جهالة منه فانه باقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يضر نفسه وغيره وقد يبوء بالخزي العاجل والاثم الآجل وفي الحديث « المتشبع بما لم يعطه كلابس ثوبي زور »

(آداب الدارس « المتعلم »)

اما آدابه في نفسه فكآداب المدرس وقد اوضحناها

وينبغي ان يأخذ نفسه من الآداب بما يصلح لطلب العلم وحفظه بالاجتهاد ، وان يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد ، ويرضى باليسير من القوت وان كان مع ضيق العيش قال ابو حنيفة رضي الله عنه : يستعان في الفقه بجمع الهم ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة

وقال الخطيب البغدادي : يستحب للطالب ان يكون عزباً ما امكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن اكمال طلب العلم

وان يتواضع للعلم وينقاد له ولمعلمه ، انقياد المريض للطبيب الحاذق الناصح

ولا يأخذ العلم الا عمن كملت اهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته وكان له دربة وخلق جميل وذهن صحيح واطلاع تام

وينبغي ان ينظر معلمه بعين الاحترام والرجحان الى اكثر طبقته فهو اقرب الى نفعه به ورسوخ ما يسمعه منه في ذهنه وقد قال الشافعي : كنت اصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحاً رفيقاً هيبة له لئلا يسمع وقعها . وقال الربيع : والله ما اجترأت ان اشرب الماء والشافعي ينظر الي هيبة له

ويروى عن علي كرم الله وجهه قال : من حق العالم عليك ان تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية ، وان تجلس امامه ، ولا تشير عنده بيدك ولا تغمزن بعينيك غيره ولا تقول قال فلان خلاف قوله ولا تغتابن عنده احداً ولا تسار في مجلسه ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه اذا كسل ولا تشبع من طول صحبته فانما هو عليك كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء

ومن آداب المتعلم ان يتحرى رضاء المعلم وان خالف رأي نفسه ولا يفشي له سراً وان يرد غيبته اذا سمعها فان عجز فارق المجلس وان لا يدخل عليه بغير اذن واذا كان معه غيره قدم الافضل والاسن وان يدخل كامل الهيئة فارغ القلب من الشواغل متطهراً متنظفاً بالسواك وقص الشعر وازالة الروائح الكريهة ويسلم على الحاضرين بصوت يسمعهم ويخص الشيخ بزيادة الاكرام وكذلك يسلم اذا انصرف

ولا يتخطى رقاب الناس ويجلس حيث ينتهي به المجلس الا ان يأذن الشيخ او الحاضرون بالتقدم والتخطي او يعلم من حالهم ايثار ذلك ولا يقيم احداً من مجلسه فان آثره غيره بمجلسه لم يأخذه الا ان يكون في ذلك مصلحة للحاضرين بأن يقرب من الاستاذ ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها ولا يجلس وسط الحلقة الا لضرورة ولا

بين الصاحبين الا برضاهما واذا فسح له قعد ويحرص على القرب من الاستاذ ليفهم كلامه فهماً كاملاً بلا مشقة على شريطة ان لا يرتفع في المجلس على افضل منه

ويتأدب مع رفقائه وحاضري المجلس فان تأدبه معهم تأدب مع الاستاذ واحترام لمجلسه ويقعد قعدة المتعلمين ولا يضحك ولا يكثر الكلام بلا حاجة ولا يعبث بيده ولا غيرها ولا يلتفت بلا حاجة بل يقبل على الاستاذ منصتاً اليه ولا يسبق الى شرح مسألة او جواب سؤال الا ان يعلم رضاه فيستدل على فضيلة المتعلم

ولا يقرأ على استاذه عند شغل قلبه وملله وغمه ونعاسه ونحو ذلك مما يشق عليه او يمنعه استيفاء الشرح ولا يسأله عن شيء في غير موضعه الا ان يعلم من حاله انه لا يكرهه ولا يلح في السؤال الحاحاً مضجراً ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه ويتلطف في سؤاله ويحسن خطابه ولا يستحي من السؤال عما اشكل عليه بل يستوضحه اكمل استيضاح فمن رق وجهه رق علمه ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال .

واذا قال له الاستاذ فهمت فلا يقل نعم حتى يتضح له المقصود ايضاحاً جلياً لئلا يكذب ويفوته الفهم ولا يستحي من قوله لم افهم لان استيثاقه يحصل له مصالح عاجلة وآجلة فمن العاجلة حفظ المسألة وسلامته من كذب ونفاق باظهاره فهم ما لم يكن فهمه ومنها وثوق الاستاذ باعتنائه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائماً واعتياده هذه الطريقة المرضية والاخلاق الرضية وعن الخليل بن احمد منزلة الجهل بين الحياء والانفة

وينبغي اذا سمع الاستاذ يقول مسألة او يحكي حكاية وهو يحفظها ان يصغي لها اصغاء من لا يحفظها

وينبغي ان يكون حريصاً على التعلم مواظباً له في جميع اوقاته ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً ولا يذهب من اوقاته شيئاً في غير العلم الا بقدر ما لا بد له منه من اكل ونوم وراحة وما اجمل قول الشافعي : حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم والصبر على كل عارض دون طلبه واخلاص النية لله تعالى في ادراك علمه نصاً واستنباطاً والرغبة الى الله تعالى في العون عليه

يقال : اجود اوقات الحفظ الاسحار ثم الغداة وحفظ الليل انفع من حفظ النهار لفراغ البال وهدوء الحركة ووقت الجوع انفع من وقت الشبع واجود اماكن الحفظ

الغرف وكل موضع بعيد عن الملهيات . ولا يحمد الحفظ بحضرة النبات والخضرة والانهار وقوارع الطرق لانها تمنع غالباً خلو القلب

واذا جفاه الاستاذ رجع اليه بالاعتذار واظهار ندمه وعدّ ذلك انفع له ديناً ودنيا وابقى لقلبه وقد قالوا : من لم يصبر على ذل التعلم بقي دهره في عماية الجهل

ومن آدابه الحلم والاناة وان تكون همته عالية فلا يرضى باليسير مع امكان الكثير وان لا يسوف في اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة وان قلت اذا تمكن منها لان للتأخير آفات ولا يحمل نفسه ما لا تطيق مخافة الملل

واذا جاء مجلس استاذه لم يجده انتظر ولا يفوت درسه

واذا وجده نائماً لا يستأذن عليه بل يصبر حتى يستيقظ او ينصرف والاحسن الصبر كما كان السلف يفعلون

وينبغي ان يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة فقد قال الشافعي : تفقه قبل ان ترأس فاذا رأست فلا سبيل الى التفقه :

ويعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه تصحيحاً متقناً ويكرره مرات ليرسخ رسوخاً متأكداً ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً ، ويذاكر كل جمعة ما فاته ، ويبدء التكرير فيها

وينبغي ان يبدأ من دروسه وفي الحفظ والتكرار والمطالعة بالاهم فالاهم ، واول ما يبتدئ به حفظ القرآن العزيز فهو اهم العلوم ، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه الا لمن حفظ القرآن واذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي الى نسيان شيء منه او تعريضه للنسيان ، وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصراً (١) ويبدأ بالاهم ، ومن اهمها الحديث والاصول والنحو ثم الباقي ثم يشتغل باستشراح محفوظاته ويعتمد من الشيوخ في كل فن اكملهم في الصفات السابقة

وكلما اتقن مختصراً انتقل الى اكبر منه مع المطالعة المتقنة والعناية الدائمة المحكمة وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب وحل المشكلات مما يراه في المطالعة او يسمعه من الاستاذ

---

(١) ليتأمل هذا الترتيب الذي اثره عن النووي الآثر له عن علماء القرون الاولى ولينظر هذه العناية البديعة التي لا يستكثر بعدها ان يأتي منها رجال ملأوا الدنيا شهرة وآثاراً

ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فن كانت بل يبادر الى كتابتها ثم يواظب على مطالعة ما كتبه

وليعتن بأكثر الدروس ويحافظ عليها ما امكن فلا يعجز اعن بالاثم

وينبغي ان يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة الى مواطن الاشتغال والفائدة ويذكر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والمذاكرة

ثمرة ذلك

قال الامام النووي اثر ما تقدم : واذا فعل ما ذكرناه ، وتكاملت اهليته ، واشتهرت فضيلته ، اشتغل بالتصنيف ، وجد في الجمع والتأليف ، محققاً كل ما يذكره ، ومبيناً في نقله واستنباطه ، متحرياً لإيضاح العبارات ، وبيان المشكلات مجتنباً العبارات الركيكات ، والادلة الواهيات ، مستوعباً معظم احكام الفن غير مخل بشيء من اصوله منبهاً على القواعد فبذلك تظهر له الحقائق وتنكشف المشكلات ، ويطلع على الغوامض وحل المعضلات ، ويعرف مذاهب العلماء ، والراجح من المرجوح ، ويرتفع عن الجمود على محض التقليد ، ويلتحق بالائمة المجتهدين او يقاربهم ان وفقه الله وبالله التوفيق اه كلام النووي

آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

ينبغي لكل منهما ان لا يخل بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال وان لا يسأل احداً تعنتاً وتعجيزاً فالسائل تعنتاً وتعجيزاً لا يستحق جواباً

وان يعتني بتحصيل الكتب شراء واستعارة ولا يشتغل بنسخه او بنسخه الا اذا كان نفيساً وليعتن بتصحيحه ، ولا يرتضي الاستعارة مع امكان تحصيله ، فان استعاره لم يبطئ به لئلا يفوت الانتفاع به على صاحبه ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه ولئلا يمتنع من اعارته غيره لان الاعارة من البر [illegible] عارية من الفضل ، وروي ان رجلاً قال لابي العتاهية اعرني كتابك قال اني اكره ذلك قال اما علمت ان المكارم موصولة بالمكاره فاعاره ، ويستحب شكر المعير لاحسانه وليحذر من الابطاء بها عن اربابها قال الزهري اياك وغلول الكتب يعني حبسها عن اصحابها ، وبسبب حبسها امتنع غير واحد من اعارتها وانشدوا في ذلك اشياء كثيرة

(خاتمة)

هذه الجملة من آداب المدرس والدارس او العالم والمتعلم مختصرة بالنسبة الى ما جاء

فيها وصف في [illegible] وقد اوردت اسماء [illegible] الائمة المتقدمين في علم الطريقة وذكره الاولية من الفوائد والحكم [illegible] التي هي بمثابة الوصية للسالك [illegible] استعمال العلوم [illegible] في [illegible] القرون الاولى [illegible] الدين والتدين [illegible] على القائمين بها والاهتداء بها [illegible] العمل [illegible] السالكين

دمشق   جمال الدين القاسمي

مخطوطات ومطبوعات

مجموعة

المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠ الجزء الثالث من ٣٦٥ [illegible] الاول سنة ١٨٦٠ الى [illegible] سنة ١٨٦١ الى ١٩١٠ تعريب الشيخين فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الارز طبع بمطبعة الصبر في جونية (لبنان) سنة ١٩١٠

اتصل [illegible] بهذه البلاد [illegible] الاحداث بسورية [illegible] النظر ان جميع الناس لا يتيسر لهم الوصول الى الخزائن الافرنجية التي [illegible] والبلاد في حاجة الى الاطلاع على ما دار بشأنها [illegible] الاكثر الاغلب منها . ومن هذه المجموعة [illegible] ولبنان خاصة [illegible] سورية [illegible] من غربيها لان [illegible] هذه البلاد [illegible] بعضها ببعض . وكنا نود ان لا [illegible] في هذا العمل [illegible] الدول ذوات الشأن في حوادث سنة ١٨٦٠ في سورية وان لا يقتصر [illegible] الى كل ما [illegible] فرنسا في ذلك [illegible] الحكمة والانسانية [illegible] من كل [illegible] في سورية [illegible] من [illegible] لا يخفى [illegible] التاريخ والامام [illegible] في عكس دعواه . وقد اعاد المعربان [illegible] من الانكليزية والالمانية [illegible] مصادرها [illegible] مشوق [illegible] بعض [illegible] واستعمالات [illegible] كتاب العصر خصوصاً من لا [illegible] الوقت في النظر [illegible] ولم يكن في البلاد [illegible] من الرقي [illegible] عدة [illegible]

الاقلام بالنظر فيه قبل نشره كما هو الحال في بعض بلاد الغرب الى اليوم ولاسيما قبل ان يكون اهل كل لغة من اللغات الافرنجية محكمين لملكة الانشاء في السنتهم وباحدنا يوم نرى في كل مطبعة من مطابعنا عاقلاً مصححاً يعني بتقويم الهفوات اللغوية والبيانية وغيرها يخرج جميع ما يكتبه ويعربه سالماً من العيوب من كل وجه . وفي هذا المقام نعيد شكرنا للمعربين على نشاطهما وحسن بلائهما ونرجو لهما التوفيق الى اتمام بقية اجزاء الكتاب ونحث محبي الاطلاع ودرس تاريخ هذه البلاد ان يقتنوه ويتدارسوه فهو اول كتاب سياسي يتعلق بحياة هذه الديار

دروس الجغرافيا

للسيد عبد الهادي الاعظمي طبع بمطبعة دنكور في بغداد سنة ١٣٣٠ ص ٥٥

نرحب بكل كتاب علمي يصدر بالعربية في مصر وتونس والشام والعراق لانه دليل النهوض الحقيقي والامة العربية لا ترقى الا اذا كان فيها كتب ابتدائية ووسطى وعليا في كل فن من فنون الحضارة . وقد اعتمد مؤلف هذه الرسالة على الكتب التركية وفقاً لبرنامج المعارف وتوسع في القسم الآخر وهو المتعلق بالبلاد العثمانية والقطر العراقي منها خاصة وخاطب التلميذ الصغير فيه خطاباً يروقه ويغرس فيه غرسة الوطنية ولسنا على رأي المؤلف في كلامه على تونس ولا في كلامه على طرابلس وبنغازي فقد قال في الاخيرتين «وهي التي عليها تحاربنا لاجلها اليوم ايطاليا تريد اغتصابها وهيهات ستبوء بالخسران عاجلاً ان شاء الله . . . وهناك اخوانكم المجاهدون يدعونكم الآن الاشتراك معهم في هذه السعادة الابدية الباهرة في سبيل حفظ الدين والوطن» فان هذه العبارات لا دخل لها في رسالة في وصف البلدان تعلم الصبيان كما ان القصيدة التي الصقها في الاسطول آخر الرسالة لا صلة بينها وبين الموضوع بحال .

وقد وقعت في الرسالة تحريفات مطبعية ونحوية وجغرافية وغيرها شوهت وجه الحق واخرجته عن القصد احياناً وكنا نود لو يعرى منها مصنف ألف للاحداث حتى يطبعوا منذ نشأتهم على الصواب . منها قوله الجغرافيا الطبيعي والجغرافيا الرياضي والجغرافيا السياسي والصواب الطبيعية الرياضية السياسية لان لفظة الجغرافيا مؤنثة وقد قلد بذلك التركية ومنها قوله البر القديم (لاوربا وآسيا وافريقية) والاصطلاح ان يقال العالم القديم كما يقال العالم الجديد لا البر الجديد ومنها قوله (ص ١٦) اجاوريا ايطاليا . الجزيرتين المرتفعتين في البحر الابيض والصواب سردينيا وصقلية ومنها ان

انها عاصمة الجبل الاسود ثانيه والصواب ستنية اوجتينة وقوله خيوه في بلاد تركستان والصواب خيوة وجنوة في ايطاليا ومنها قوله ان مساحة سورية تبلغ ١٠٠ الف كيلومتر مربع والاصح ١١٥ الفاً وفي تقويم غوتا ان مساحة لواء القدس ١٦ الف كيلومتر مربع ومساحة متصرفية لبنان ٣١٠٠ ولواء الزور ٧٨ الفاً (ويعد معظمه من سورية) وولاية سورية ٩٥٩٠٠ وولاية بيروت ١٦ الفاً وولاية حلب ٨٦٦٠٠ ونحو نصفها من بلاد سورية . واخطأ في قوله ان الجزائر دخلت في حوزة فرنسا منذ قرن تقريباً والصحيح انها بدأت في امتلاكها سنة ١٨٣٠ . ومن التحريفات في الاعلام قوله ان قصبة جرابوب اهم مدائن السنوسيين في افريقية والصواب جغبوب وتابع اصطلاح بعض الكتاب في استعاضتهم عن « صلى الله عليه وسلم » بصلعم والاجدر بمقام النبوة ان يذكر اللفظ كله فان بعض علماء المشرقيات ممن طبعوا الكتب العربية في مطابع الغرب جروا على هذا الاصطلاح حب الاختصار بادئ بدء ثم رجعوا عنه نتمنى ان يصلح المؤلف كل ذلك في طبعة ثانية وان يعارض اسماء البلدان بما طبع من كتب الجغرافية لعلماء العرب في اوربا ليتابعهم في اصطلاحهم وذلك في مثل كتاب معجم ما استعجم للبكري وتقويم البلدان لابي الفدا ومعجم البلدان لياقوت والمسالك والممالك لابن حوقل والتنبيه والاشراف للمسعودي ومسالك الممالك للاصطخري وصفة جزيرة العرب للهمداني والاعلاق النفيسة لابن رسته واحسن التقاسيم للمقدسي وكتاب البلدان لابن الفقيه ومسالك الممالك لابن خرداذبة وزبدة كشف الممالك للظاهري وعجائب البر والبحر لشيخ الربوة وغيرها من الكتب الممتعة التي تفهمنا اصطلاحات العرب وتعابيرهم ومعظم ما ذكرناه لم يظهر الا بعد تغيير عمّ كثرة ارتقاء علم الجغرافيا في العهد الاخير . وفي الختام لا نرى بداً من الثناء على المؤلف راجين ان يقبل على نشر كل ما يبث المعارف بين الناشئة العربية

كتاب خالد

THE BOOK OF KHALID BY AMEEN RIHANI

هو مجلد في ٣٨٩ صفحة نشره بالانكليزية في نيويورك صديقنا امين افندي الريحاني وهو رواية فلسفية اجتماعية جمع فيها بين الكلام في المدنية الشرقية والمدنية الغربية واقفاً على ذكر الاوضاع الدينية والسياسية بلسان رشيق مفرط بحب الحرية شهد له العارفون بآداب اللغة الانكليزية انه يعد في الطبقة الاولى من احكام بيانها

والشاعر فيه مدافع في مطاوية ومشروه فعسى ان يكون لكتابه بين العارفين تلك الثقة من الوقع ما كان لكتبه باللغة العربية من الأثر في ازالة غشاوة الاوهام وهدايته بالنقل الى العربية فيستفيد منه المشارقة والمغاربة على حد سوى فالاقربون اولى بالمعروف ومثله من يغار على مصالح الامة العربية ويتوق الى نجاحها كما علم

العقود اللؤلؤية

E. J. W. GIBB MEMORIAL (Vol. III) THE PEARL-STRINGS; A HISTORY OF THE RESULIYY DYNASTY OF YEMEN, BY 'ALIYYU 'BNU 'L-HASAN 'EL-KHAZREJIYY

ليس لليمن تواريخ كثيرة مختصة بالايمن ومن اكثر مؤرخيها ابو الحسن علي بن الحسن الخزرجي النسابة المعروف باليمن وعاش الشرقي سنة ٨١٢ قال كاتب جلبي انه غني باخبار اليمن يجمع تاريخًا على السنين وآخر على الاسماء وآخر على الدول وغيرها. ومن جملة مصنفاته كتاب العقود اللؤلؤية فهو خاص تقريبًا بتاريخ الدولة الرسولية نسبة الى بني رسول التي حكمت بلاد اليمن زهاء قرنين (٦٢٦ — ٨٥٨) وقد ظفر بعض علماء المشرقيات بنسخة منه في امنه فترجمه بالانكليزية ونشرت الآن جمعية تذكار «جب» ثلاث مجلدات من الترجمة وستنشر الاصل العربي عما قريب وقد ترجمه ونشره اربعة من ائمة المشرقيات في انكلترا وهم ردهوس وبراون ونيكلسن وروجرس وسنفيض في الكلام على هذا التاريخ متى صدرت النسخة العربية منه ونكتفي الآن بامداء الطيب الثناء على من تحفظوا بخدمة الآداب والتواريخ العربية من عارفي لغات الشرق من الغربيين ومن يعنون بنشرها مثل لجنة تذكار «جب»

دروس التاريخ الاسلامي

تأليف الشيخ محي الدين الخياط القسم الرابع ص ٢٨٨ طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت
ويطلب من المكتبة الاهلية فيها سنة ٣٢٩

تكلمنا على الاجزاء الاولى من هذا الكتاب وهذا الجزء يشتمل على مجمل تاريخ الدولة العباسية وقد جعله المؤلف جملاً كل جملة او قطعة تحتوي خبراً يحسن السكوت عليه وجعل في آخر كل درس اسئلة للطالب يجيب عليها فيدل بذلك ان كان فهم ما مر به من الحوادث او لم يفهمه. وذلك بتنسيق حسن وعبارة سهلة فصيحة لا شائبة فيها بحيث جاء كتابه مشوقًا في موضوعه لمطالعة الطلاب في التاريخ وقد جعل في الاخير صفحات فيها زيادة ماس بالمدارس ثم الحقه بجدول يبين فيه ازمنة دولة الخلفاء الراشدين والدولتين الاموية والعباسية بتاريخين الهجري والميلادي كل ذلك بحرف جلي وطبع

مشرق وياحبذا لو شكل بعض الاعلام التي قد شتته على اكثر الطلاب وعساه يتدارك ذلك في الطبعة الثانية وفقه الله لاتمام هذه السلاسل النافعة

اريج الزهر

تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني طبع بالمطبعة الاهلية في بيروت سنة ١٣٢٩ — ١٩١١

ص ٢٤٠

هو كتاب اخلاقي اجتماعي ادبي حوى ما كتبه المؤلف من المقالات في الموضوعات المختلفة في الصحف والمجلات بعبارات سليمة من التعقيد عارية عن الفاظ الغريب والبياني ترضاها الخاصة ولا تنبو عنها اسماع العامة كما اعتاد قلم المؤلف في الكتب المدرسية وغيرها مما نشره حتى الآن من منظومه ومنثوره . وكتابات مثل صديقنا المؤلف هي الحلقة الموصلة بين اكثر طبقات القراء والكتب العالية في الادب والاجتماع والاخلاق ومسهلة طرق تفهمها

وقد قدم هذا الكتاب الشيخ محيي الدين الخياط الفاضل المشهور مقدمة رائقة بناها على حب الظهور وشرح ما له من الدخل في ارتقاء الامم بعبارات تجمع الى المتانة سلاسة ثم عرف بصاحب المجموع واتى بنموذج من ادبه الغض وعرف المجموع وصاحبه بهذه الجملة « هذا المجموع هو « زهرة » شبيبة فاضلة فاح « اريجها » اذ لم تدنسها اوضار الغرب ولم يهتكها ذبول الشرق فهو « زهر » اخلاق وفضائل بل هو غيرة مجسمة وحماسة تريد النهوض بناشئة الشرق والاشراف بهم على مدنية الغرب شأن اصحاب النفوس الكبيرة التي تريد الصعود من مدارج المجد والظهور من شرفات العلاء » .

ومن مقالات هذا السفر اللطيف . نهج البلاغة او اساليب الكلام العربي . ايها الانسان . الخط رجال ام خط وجدان . الى الامة العربية . التربية اساس النجاح . الانانية وحب الذات . رجال الاصلاح . الارادة . الالقاب والرتب . حديث مع الشابة . الانتقاد ومشارب المنتقدين . سعادة الحياة . دلائل التوحيد . ام القرى . مجلس الامة . المال والشرف . العادات . الميسر . الاستقلال الشخصي . القابلية والفاعلية . الخطابات والامم . الثورة الادبية . السد الاجتماعي . الرابطة الدينية . الخرافات والبدع الدينية . العرب والترك . اللغة العربية وغير ذلك مما لا يخلو من الخطابيات للتأثير في الجمهور وهي تشف عن غيرة وطنية وارادة قوية في السعي لانهاض العقول

من كونها في الشرق الاسلامي . فنحث المتأدبين على اقتناء هذا الكتاب وفق الله مؤلفه الى اتمام ما يريد من التأليف والنشر فان المؤلفين من المسلمين في بلاد الشام قلائل جداً والجيد فيهم اقل وبعض من يقتدرون على الوضع والنقل شغلوا بالخوض في الموضوعات السياسية الزمنية في الصحف فاضاعوا ملكاتهم الا قليلا وهيهات ان ترتقي أمة يكون معظم اهلها ساسة ولهذا وجب علينا تكريم كل من يتصدى لنفع أمته من طريق الاصلاح العلمي والادبي والديني من اهل هذه الديار وفي جملتهم مؤلف اريج الزهر .

البصائر

مجلة جديدة تصدر في بيروت مرة في الشهر لمنشئها جميل بك العظم وقيمة اشتراكها ريالان وعدد صفحاتها ٤٠ ومن مقالاتها مقالة في التنجيم والمنجمين واخرى في الخط ومشاهير الخطاطين وهي تطبع كل شهر ملزمة من مخطوط قديم وبدأت الآن بنشر كتاب تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين للفيروزابادي صاحب القاموس . والمؤلف من الافاضل الذين يحسنون الكتابة بالتركية والعربية له اطلاع مهم على المخطوطات العربية ووقوف على الادب وما ينبغي له ولذلك يرجى ان ينتفع الآداب العربية بمجلته لانه يعرف الانتقاء ويحسن التأليف ويعد في جملة الاكفاء الذين أقدموا على نشر المجلات في الشام بعد حرية المطبوعات فعسى ان يثبت في خطته التي اختطها في مجلته والثبات أس النجاح في كل الاعمال ولا سيما العلمية التي قلما يجد عليها صاحبها تنشيطاً مادياً او معنوياً في بلاد تسعة اعشار اهلها أميون والمتعلم منهم لايعرف غير القشور دع عنك من كتب لهم درس الدروس العالية ومعظمهم لا يهتمون غير التجارة والوظائف

اخبار وافكار

العرب والتجارة (١)

بين تخوم آسيا وافريقية تيقظ شعب بعد سكوت لكنه سيستولي على بلاد البحر الرومي ثم يتدخل ليناهض الغربيين ونحن الآن لا يمكننا ان نقول شيئاً عن الحروب الصليبية قبل ان نذكر طرائف عن تلك الامة العربية ونبيها محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى البعثة المحمدية. كان العرب انسباء اليهود يعيشون العيشة الرعائية غير انهم عشاق سفر امتازوا بحب التجول وقوة الهجوم وشدة الانفعال وليس لهم الا الشرف وحب الشعر والادب وبغض الكذب مذهب يدينون به على ان اكثر الاديان التي وجدت قبل البعثة المحمدية كانت تناسب العقيدة الفتشية وتجيز الاستلاب لا رابطة بين القبائل تضم الشعث سوى احتفالهم العام في ام القرى كل عام

كان الانبياء الحنيفيون منذ القرن السادس من التاريخ المسيحي تترى في العرب لتحطيم شأفة الوثنية وارجاعهم لملة ابيهم ابراهيم ومحمد احد هؤلاء الحنيفيين بيد انه افصحهم لساناً واكثرهم اقناعاً للعقول

ولد محمد في مكة عام ٥٧٠م بين القرشيين سدنة الكعبة ومروجي سائر عقائدهم القديمة فلما قام ينذر ويكبر حتى خاصمه اهل قبيلته بل اقرب الناس اليه وقاوموه جد المقاومة فلم ير بداً من المهاجرة الى يثرب التي سميت بعدئذ بالمدينة وهنا ابتدأ تاريخ المسلمين الهجري موافقاً ١٦ تموز عام ٦٢٢ م

وبعد دخوله يثرب وجد لها خصباً لبذر بذور دعوته فاتخذ له انصاراً مخلصين اشتد بهم أزره فأعلن الحرب على المكيين ثم دخل مكة وطنه ظافراً وكسر فيها الاصنام ونشر الحكمة والكتاب وجمع شملهم بآصرة الوحدة الاسلامية العربية ثم توفي بعد أداء وظيفته العظمى عام ٦٣٢ .

الاسلام او الاستسلام الى الله بث في اتباع محمد وانصاره روح النشاط والغيرة وعصبية ملكتهم زمام العالم وجعلتهم اساتذته. اذ في قرن واحد اي من عام ٦٣٢ الى ٧٣٢ استولى خلفاؤه الصحابة الراشدون والامويون الوارثون ومن بعدهم على سورية وفلسطين

---

(١) اقتطفناها من كتاب المختصر من تاريخ تجارة البشر لبول ديسون

والجزيرة سنة ٦٣٨ ومصر ٦٣٩ وفارس ٦٤٢ ثم تتابع استيلاؤهم على تركستان وقطعة من الهند وبلاد الارمن وقبرص واقريطش (كريت) وطرابلس الغرب وافريقية الشمالية كلها وعلى صقلية وسردينية والجزائر البليارية ثم هجم برابرهم على بلاد غاليا الافرنجية وهدد هناك كيان النصرانية الا انه وقف ذلك التيار الجارف في بواطية عام ٧٣٢ م

وان استبحار عمرانهم وسرعة انتشار سلطتهم في المسكونة لما يساعدنا كثيراً على فهم مكانة المدنية العربية تلك المدنية التي يعتقد بدينها اليوم اكثر من ٣٠٠ مليون من البشر فقد كانت هذه الحضارة الباهرة في القرون الوسطى مزيجاً من المدنية البيزنطية والمسيحية وتم هذا المزيج المدني بامرين الاول عشق العرب للتجارة والثاني غرامهم بالاستعمار وقد قال نبي العرب الذي كان قائد قوافل في حداثته ثم صار تاجراً: (ان الله يحب المؤمن المحترف) وامر العرب ان يدرسوا فنون الادب والعلوم قائلاً (الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما بينهما) وبذلك اصبحوا لذكائهم الوقاد وحب اطلاعهم على كل شيء يخوضون غمار العلوم الطبيعية والرياضية فابتدعوا الكيمياء وبرعوا بها وطبقوا تلك العلوم على الزراعة والصناعة ولهم المنة على سائر الامم بارقامهم العربية النائبة مناب الرومانية وباستنباطهم فن الجبر والمقابلة واختصارهم الهندسة واعمالهم الجليلة الفلكية في ابحاث سمت الشمس ومعادلة الليل والنهار والبقع الشمسية فقد اصطنعوا الآلات العجيبة الفلكية كالاسطرلاب ونحوه واكتشف كيماويوهم واطباؤهم خواص الالكحول والنشادر وحامض الازوت والكبريت والمياه المعدنية وادخلوا في كثير من علاجاتهم مواد من نبات بلادهم الوطنية كالكافور والراوند والسنا المكي وقد اوصلتهم قرائحهم التاريخية لانشاء عمل شعري بديع وهو الف ليلة وليلة اقول وهم اسرع الناس لتدوين انسابهم وملاحمهم وابطالهم ورواية اشعارهم والكتابة في فلسفة التاريخ وفنون الاجتماع كابن خلدون وغيره من جهابذة الاسلام .

اما الفنون الجميلة فان العرب قد نهجوا فيها نهج البيزنطيين ولم يخالفوهم الا بعدم تجسيم الحيوان ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي (Arabesque) من تشبك اوراق واقواس باهرة وفسيفسة زاهرة وآطام ومعاهد (Monument) ساحرة كقصور تونس ومصر وبغداد وجامع عمر في القدس وجامع قرطبة والقصر في اشبيلية والحمراء في غرناطة الخ .

والعرب عمال زراعة ورجال زراعة قديرون في سقي الجنائن واخترعوا النواعير العجيبة بل ووطنوا النباتات والاشجار الافريقية والاسيوية في اوربا كالنخل والبرتقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والارز والحنطة السوداء والزعفران والهندباء والخرشوف والسبانخ والباذنجان والطرخون والبصل والياسمين الخ .

وينسب اليهم اختراع طواحين الهواء ونواعير الماء. وهم الصناع المجيدون الاولى صنعوا الجلود القرطبية وعملوا البسط الفاخرة ونسج الشف (برنجك) والحرير سيما الاقمشة الموصلية والاقمشة والاسلحة الدمشقية وماء الورد والورق المصنوع من الخرق البالية والقطن الذي كان يعمل في سمرقند وبخارى ودمشق وبلنسية ومعامل الزجاج الملون ومصانع الفخار اللامع والاواني الفخرية ومواد اخرى عديدة بها اثرت بغداد وطليطلة وقرطبة .

وفي التجارة احرز العرب قصب التفاضل على سواهم فقد رقوا الصناعة البحرية ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الابرة من الصينيين (بوصلة) وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر اي ضبط وشرحوا الكفالة وانشأوا المصارف للفقراء ووضعوا السفاتج (كمبيالة) الأولية وورود الشك (روستو) وبعثوا روح الحركة في معارفنا الحديثة .

وكنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل وأمنوها وعمروا الاراضي والقرى واصلحوا وانشأوا الفنادق والرباطات ورتبوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن الاسلامية غير اوساط تجارية كبرى وبغداد دار السلام لم تكن من القرن الثامن الى العاشر وميناؤها البصرة غير مستودعات الشرق بحذافيره فقد كان بها مليون من السكان وكان لتجارها الكبار علائق مع الموصل والبلاد الارمنية وفارس وتركستان (بخارى وسمرقند) والهند وجزائر الهند (جاوة وسومطرا) التي كانت تبيعهم الاخشاب الثمينة وكانوا يواصلون الصين بطريقين بري وهو ما يعرفه الرومانيون ممتدا في سهول اليهو ووادي تاريم والآخر بحري وهو المحيط الهندي ومن محطاته مرفأ قنطون وسيفارة القديمة التي كانوا يجلبون منها الاقمشة الحريرية والاواني الصينية وقطن نانكين والورق الارزي وصمغ المك ثم يرجعون ادراجهم الى بغداد لتوزيعها الى سائر الجهات التي تستعمل نقودها سكة الخلفاء . والدرهم الفضي كان يساوي نحو فرنك والدينار الذهبي مقدار ١٣ او ١٤ فرنكاً وقد اهدى هارون الرشيد خليفة بغداد لشارلمان الاقمشة الحريرية والعطور وشمعدا

شيئاً من القفل (بروتو) وساعة مائية كانت مبعثاً لاعجاب فرنجة ايكس لاشابل فقابله علىّ ذلك بالخيول المطهمة والبغال المزينة وكلاب الصيد واقمشة مدنية فريز الصوفية .

وكانت بغداد متصلة بكابل لاسواقها الشهيرة مع سمرقند وحلب المرتبطتين بحبل من القوافل السيارة متين . وهكذا كانت بنقل شال كشمير وأقمشتها ومسك التبت وتركستان وعقاقيرهما علىّ ظهور الجمال في الغدو والآصال . وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر وسورية . وبواسطة ثغر السويس كانت تصل العرب بضائع عدن وجدة . وقد تحول لمصر قسم عظيم من الحركة التجارية وذلك من البلاد التي نبتت فيها البذور الاسلامية كالشرق الاقصى ومنه الصين وماليزيا واصقاع قرومندل ومالابار وجزيرة مدغسكر وقد انشأ الخلفاء الفاطميون مصر القاهرة اي مدينة النصر ولا تبعد عن منفيس القديمة كثيراً

واحتفظت مدينة الاسكندرية مليّاً بمكانتها السابقة وجرفت عنهم انهر تراجان مرة ثانية وبه شدد وثاق النيل بالبحر الاحمر وسروا باسفارهم اغوار بلاد الحبشان وكردوفان وأسسوا المكاتب التجارية في اقطار افريقية الشرقية ومومباسا وكيلوا وموزامبيق وصوفالا وميلندا وطلبوا منها السحوق الذهبي والعاج وحراشف السلاحف البحرية واصبح في المغرب من المواصم الشهيرة كالقيروان ومرفأها السوس الصغير وارغلا وواحتها الغنية في الصحراء الجزائرية وتلمسان وفاس وغيرهما من المدن الكبرى التي كانت ينابيع البيع والشراء والاخذ والعطاء .

وكان سكان فاس ٥٠٠ الف وتصدر مختلف الاصواف والجواهر (المعادن) والعطور والجلود المراكشية واستمرت مستعمرات في فزان وطوامط والسودان وكانت طمبكتو التي يقطعها نهر النيجر مجمعاً كبيراً من مجامع الوكلاء التجارية . واما قرطبة عاصمة الاندلس فقد كانت تحتوي علىّ مليون من البشر وعلى ٢٧٣ الف بيت و٦٠ الف قصر (خلفت هذه جماعة الايام) وكانت في اشبيلية ٣٠٠ الف نسمة وطليطلة ٢٠٠ الف وكذلك غرناطة وقادس ومالقة والمرية ومرسية وجيان وطليطلة وسرقسطة وبرشلونة فقد كانت هذه البلاد تضم بين جوانحها مختلف الشعوب الاسبانية ومتباين الامم الغربية التي كانت ترد حياضها لتناول أقداح العلوم والصنائع والفنون ولجلب صنائع النسيج والزينة ودامت العلائق الاقتصادية زمناً بين بيزة ومونبلية الفرنسويتين وبين اسبانيا المسلمة .

وأما برشلونة وإشبيلية فقد كانتا من أكبر الموانئ الإسبانية وكانت الأولى ترسل سفنها إلى الغرب وآسيا الصغرى ورودس والقسطنطينية وعقدت في مصر معاهدات تتفق مع نجدة ومعاونة الإيطاليين في مسائل الحوالات وسائر الأعمال المصرفية. وأما إشبيلية فقد كانت تبعث أساطيلها وتجارتها إلى الأوقيانوس الأطلانطيكي قاصدة الجزائر البريطانية وبلاد الفلاندر (هولاندة).

وإنا لنعجب غاية العجب كيف لم يفهم لأسرارهم الترامية أساتذة جغرافيون تلقنوا بالعلم كتاب بطليموس واكتشفوا الآلات الأخرى بغير ألفاظهم لوحاً ووضعوا التصورات التقويمية للغربيين وأسس يوم فوق الشمال وحب الترحال نخص بالذكر منهم المسعودي وابن حوقل وابن بطوطة والإصطخري ورفع بين مشاهير الرواد راية سليمان وأبي زيد حسان اللذين عاشا القرن التاسع وأثنا المحدثين وجاب أولها شبه جزيرة ملقة واكتشف سلسلة الجبال المسماة باسمه اليوم وسعد طول نهر السند والنيل تتبعها إلى أحوال ملازها والتيات وأقطار المحيط الهندي الأفريقية. ولم وكم عادت الحروب الصليبية إلى الغرب بخيرات لا تستقصى ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصب الكنسي لكفى. وذلك لما رأى الصليبيون من تسامح المسلمين والتعالي مشاعر أمرائهم كصلاح الدين الأيوبي والملك العادل اللذين لقي منهم أهل الصليب كل شرف وعطف ونبل ويقدرها خير الأعداء. ومثلك يكفينا ان نقول ان الكنيسة ورؤساءها كبطرس الراهب الذين أرادوا تكوينها ورعتة تكتها لم يمسوا خلفيهم لإطلاقهم لأن تلك الحروب الصليبية لم تخدم الأديرة.

وأما أثر الوجدان من تصالح الغرب مع الشرق وانقطاع بقايع العداء. فلذلك فقد اكتسب من هاتين الأعمال من الفوائد المادية والأخلاقية التي أذاقتهم طعم السعادة ما لم يشاهد إلا شيئاً. وهكذا نرى التجارة انتشرت بعد الحروب الصليبية أكثر من انتشارها أيام المملكة الرومانية فتعودت أوروبا من العرب عادات النظافة والمدنية وكل ملاهي الحياة وعطيها الأنفس واشتد الغربيون يوطنون اقتباساً عن العرب مختلف أنواع النبات والحيوان وأخذوا يستعملون الأقمشة القطنية والحريرية ويستكثر القصب والكحول وقلدوا العرب في أزيائهم وأكل الأطعمة العربية. ثم توطد الأمن واتحدت العلائق بين البلاد المسيحية والإسلامية وذاق الصليبيون لذة الأسفار بعد حروبهم حتى صار الآسيويون من الرأس الأصفر لا يخشون من رحلتهم إلى رومية وليون وبرشلونة

وباريس بل ولوندرا القصية

انقلب مجن الزمان بعد تلك الحروب وزالت الريب والمخاوف وابتدأ المتصالحون يتملكون هذه الارض يسبرونها ويشكون في هيئتها حتى جرّهم ترقي الجغرافيا لاكتشافات عديدة في العلوم الطبيعية والفلسفية بله نقول ايضاً ان تلك الحروب الصليبية وان سهّلت رواج أسواق التجارة غير ان هذه التجارة قد قربت متفرق المتحاربين ورأبت منهم الصدع واسقطت السلاح من ايديهم وقدمت الهيئة الاجتماعية كثيراً

دمشق المترجم : عز الدين شيخ السروجية

اخوان روح القدس

كل دعوة تجد في اميركا بلاد الغرائب انصاراً وكل مذهب يصادف اخواناً واخداناً . وقد قرأنا في المجلة مقالة في مذهب جديد نشأ منذ بضع عشرة سنة يزعم اربابه ان المرضى مأخوذون لا يشفون الا بطرد الشيطان عن اجسامهم بضربات من التوراة . نشأ هذا المذهب في ولاية مين في دورهام ثم انتشر بفضل رئيسه فرانك سانفورد الذي يدعوه اشياعه الياس الثاني ويرونه رسول الله على الارض على ان من لا يعتقدون فيه يرونه من نوع المشعوذين والروحانيات Hypnotiseur اما الملحدون فيعتبرونه متعصباً مختالاً

ولما شرع هذا الرجل بتأسيس معهد لشيعته لم يكن يملك قرشاً فتبرع احد الاخوان بالارض وعمروها في مدة قليلة ومنهم المهندس والبناء ومنهم الذي اتى بالاحجار وآخر بالاخشاب وغيره بمواد البناء ومنهم من وقف ماله كله بحيث لم يمض على تأسيس هذه الشيعة ١٥ سنة اذ أسست سنة ١٨٩٦ حتى اصبح رأس مالها نصف مليون فرنك اتت كلها من صلوات يتلوها صاحب المذهب والاخوان يعتمدون على الله ولذلك يرون انه يمنيهم رب السماوات وقد زعموا ان الله بذاته اوحى بانشاء هذا المعبد وقدر انجازه على اتم صوره مع ما يتبعه من مستشفى ذو اربع طبقات ومدارس ومساكن وغير ذلك فكانت الدراهم اذا نضبت يأتيهم الفرج من حيث لم يحتسبوا فيعاودون العمل ويزعمون ان مئات اتوا الى هذا المستشفى فشفوا من اوصابهم من فالج وغيره بضرب كتاب التوراة على الحائط فما هو الا ان تغادر اجسامهم الشياطين التي تلبستها وقد ثبت ذلك فيما قالوا بالوف من الشهادات على ان التطبب في هذا المستشفى مجاني يدخله الاخوان وغيرهم

ويدعي سانفورد انه يعتقد ارادة الله في الارض ويصعد كل يوم الى برج عال في الهيكل ويكلم المولى كما كان يفعل موسى الكليم ويتلقى اوامره تعالى ثم يبلغها الاخوان فيعملون بها بالسكوت

واصل سانفورد قس من اهل كنيسة البابتست في نيو انكلند وهو ذو شخصية [illegible] تخلى اول امره عن كل ما يملك وبقي يسيح ثلاث سنين وعندما قصد [illegible] لا يبالي ما لقي من ترك راحته وزوجته ولم يسمع [illegible] دعوته الا [illegible] من هيئة الطبيعة وحركته الاخرة وكلامه القوي واسس المعهد في مكان عال مشرف على مدينة [illegible] ووضعوا تحت امره مصرف الله [illegible] الرب [illegible] سانفورد وكيلا له

ثم رأى هؤلاء الاخوان ان يبثوا دعوتهم في اقطار الارض فاتخذوا لهم اسطولا يركبونه [illegible] وهم يدونون انفسهم جميع امره وهو عبارة عن سفينتين [illegible] وهذا الاسطول ساعد سانفورد واتباعه ان يطوفوا ام بلاد الكرة الارضية [illegible] في [illegible] في فلسطين وكانت الصلوات تقام في غياب سانفورد كما لو كان حاضراً [illegible] الجماعة [illegible] ويعتقدون بالروح صاحب المذهب [illegible] وهم [illegible] كل [illegible] محدودة من [illegible] والاخوان [illegible] ويكثر بحسب الايجابات من المهارات التي [illegible] امرها سانفورد وجميع الاخوان متضعون الى الله ولا يحسبون حساب الغد بل الله كفيل بحاجاتهم [illegible] الاولاد كلهم في المدارس الاعتماد على الله بحيث ان هؤلاء [illegible] لا يعولون ولا [illegible] حتى [illegible] في [illegible] فاذا مات [illegible] في [illegible] بدون احتفال ولا ابهة ولا يبكون عليه ويعتقدون ان الجسم هو [illegible] الروح التي يدفعها الله اليه وهو حر [illegible] فيها [illegible] الالم [illegible] عبارة عن [illegible] الولي ولا يحفظون كثيراً [illegible] بل يكتبون اسم المتوفى بدون اسم اسرته بحيث [illegible] وكان عدد هذه الشيعة [illegible] كثيراً بعد ولكن [illegible] جميع الولايات المتحدة [illegible] سانفورد في مذهبه ومن هؤلاء الاخوان من كانوا اغنياء فتخلوا عن كل [illegible] لديهم للطائفة ومنهم من كان [illegible] الثلاثة الف [illegible]

وقد كتب سانفورد كيف تدار [illegible] والشرق الاقصى والصين

والانهار والبحر الكبير ومصدر السلطان والجبال والرياح والكواكب المقدسة [illegible] قال [illegible] هذه السياحات بانه من المعلوم تنتشر الاخبار بسرعة في مجموع سطح الكرة الارضية فان هذا القليل من الاوهام لان كثيراً من البشر لم يسمعوا باسم الله قط ولا يعتقدون بشيء في حين اني كل شيء وجود الله الا هذا الانسان الذي يكفر بربه كما قال شاعرهم [illegible] عشب الوادي وازهار الحقول تحمده والحشرة تطري بمدحه والطير يسبح به في الصباح والطيور تنادي باسمه في الاوراق والصاعقة تنبئ بقدرته والبحر المحيط يعلن عظمته والنسيم يحركه وما عدا الانسان منكر الصانع ولا اكاد احد ثلاثة ملايين من سكان الارض كلهم لا يعرفون من هو المسيح واني لا اعتقد ان الناس سيعرضون على الديان في اليوم الاكبر مقسومين الى قسمين قسم يقوده المسيح والآخر المسيح الدجال الى غير ذلك من العقائد وبعضه مختلق من الاديان السماوية وبعضه من عادات القوم وتقاليد صاحب المذهب

محصول الذهب والفضة

كتب ابن كوبيه الاقتصادي الشهير رئيس تحرير مجلة الاقتصاديين الباريزية مقالة في الذهب والفضة قال فيها ما خلاصته (ملخصاً) : كانت اوربا في عهد اكتشاف اميركا سنة ١٤٩٢ فقيرة جداً بالمعادن الكريمة تملك ما قيمته نحو مليار فرنك من الذهب والفضة ولما اكتشفت اميركا انصرفت الرغبة الى طلب الابيض والاصفر . ويؤخذ من تقرير وضعه بعض الاقتصاديين معتدين الكيلوغرام واحداً قياسياً فقدروا كيلوغرام الذهب ٣٤٤٤ فرنكاً و٤٤ سنتيماً وكيلوغرام الفضة ٢٢٢ فرنكاً انه بلغ محصول الذهب من سنة ١٤٩٣ — ١٥٢٠ ٥٨٠٠ كيلوغرام قيمتها ٢٠ مليون فرنك ومحصول الفضة ٤٧ الف كيلو قيمتها ١٠ ملايين فرنك وهكذا تدرج المحصول بحسب الادوار حتى بلغ ما استخرج من الذهب من سنة ١٥٨١ — ١٦٠٠ ٧٣٨٠ كيلو من الذهب قيمتها ٢٥ مليون فرنك و٤١٨٩٠٠ كيلو من الفضة قيمتها ٩٣ مليوناً . وكان مجموع محصول الذهب والفضة من سنة ١٥٦٠ الى سنة ١٥٨٠ = ١٨٧٠ مليوناً . وفي العشرين السنة التالية بلغ مجموع ثمن المستخرج من المعدنين ٢٢٧٠ وهكذا بلغ مجموع قيمة ما استخرج من الذهب والفضة خلال ثلاثة وسبعين سنة ٤٢٧٠ مليون فرنك اي نحو اربعة امثال ما كان في اوربا في عهد الاكتشاف الاميركي سنة ١٤٩٢ ومع كل هذا فان اسبانيا لم تثر بما ورد عليها اكثر من جميع ممالك اوربا من الذهب ووقعت في ضائقة

لا مثيل لها واصبح عند طلب المال بلا اهتمام ولا معوقات فيهتمون بالذهب و[illegible] عليه غلاء واحتكار ادى لوقوع المشكلات العامة

فحددوا سعر الحنطة ومنعوا اصدار المصنوعات الى اميركا كما منعوا اخراج الصوف وكان المعدنان الكريمان لا يباعان الا في الفرس بواسطة صيارفة جنويين

وما برح الاقتصاديون منذ بودن في القرن السابع عشر الى لوك الى منتسكيو الى دافيد هيوم الى جايمس ميل الى نكلسون والرايهم يبدون في ارتفاع اسعار الذهب والفضة آراء وان اختلفت في الظاهر فهي واحدة فقد قال هيوم زيدوا البضائع تقل قيمتها وزيدوا النقود ترتفع قيمتها وقال الاستاذ نكلسون ان الذهب روح التجارة وعلة الصناعة وجريها وكثرته وقلته يعلي او يخفض الاسعار العامة كالريح والجزر يزيد او يخفف سرعة البواخر

وبعد فقد كان محصول الذهب مدة ٣٥٨ سنة اي من سنة ١٤٩٣ الى ١٨٥٠ ٤٧٥٢٠٠ كيلو قيمتها ١٦٢٣٦ مليون فرنك ومحصول الفضة ١٤٩٨٢٦٠٠٠ كيلو قيمتها ٤٠٦١٧ مليون فرنك وبلغ محصول الذهب من سنة ١٨٥١ الى ١٨٧٥ (١٦٤٤٨) مليون فرنك اي انه تضاعف وبلغ محصوله من سنة ١٨٧٦ — ١٩٠١ (٣٦) مليار فرنك اي ان مجموع محصوله في ٢٥ سنة ساوى المجموع السابق كله وزاد عليه ٨ [illegible] وقد زاد محصول الذهب منذ اكتشفت مناجمه في كليفورنيا سنة ١٨٤٩ وفي اوستراليا سنة ١٨٥٠

وزادت حركة الغنى في اوربا بعد سنة ١٨٤٧ وقت المجاعة ثم وقفت وقوفاً موقتاً زمن الثورات التي حدثت من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٤٩ في بعض بلاد اوربا وبعد قبول انكلترا [illegible] حرية المقايضة فقبض الناس ايديهم وتعطلوا عن العمل ونهبت الاموال ولما زالت تلك الغشاوة عادت الحركة اكثر من قبل وكثر الطلب اكثر من العرض كما هي العادة في مثل هذه الاحوال بعد اشتداد الزلازل وتكاثر الاهوال وكما كان معدنو الذهب في كليفورنيا واوستراليا يسرفون في التصرف بما يستخرجونه من هذا المعدن الكريم وهم في حاجة للمصنوعات والمأكولات كانت الحركة تزيد بين الامم وتزيد من ذلك البلاد الصناعية ارباحاً [illegible] الكثير من سنة ١٨٥٠ الى ١٨٥٦ خطوطها الحديدية فحدث ٥٠٠٠ ميل زيادة وأنفق من هذا الذهب في حرب القرم كمية وكل حرب يعقبها ارتفاع في الاسعار . والناظر في الصادرة قد لا من جلب الذهب من

كيلومتراً وسرت ايضاً الى شرقي الولايات المتحدة فانشئت خطوط حديدية كثيرة بحيث بلغ ما مدته من سنة ١٨٤٩ — ١٨٥٧ (٢١) الف كيلومتر ومن ذلك راجت سوق المضاربات والمصارف وكان من امر هذه الحركة في ارتفاع الاسعار ان عادت فحدثت ازمة مالية في اميركا اغلق فيها ١٥٠ مصرفاً دع عنك شركات العملة التي افلست ولم يبق من مصارف نيويورك سوى مصرف واحد من ٦٩ مصرفاً استطاع ان يؤدي ما عليه واسباب انكشاف هذه الضائقة هي كثيرة اذ كان في اميركا من الاموال ما بلغ قيمته ثمانين مليون ليرة وعقب حرب ايطاليا وحرب الشمال مع الجنوب في اميركا عادت الاسعار فارتفعت لا لكثرة الذهب بل لان الذهب اصبح يقاص عليه بورق

ولئن كان المعول على الذهب في مقايضات الامم فان البلاد ذات العيارين اي التي تتعامل بالذهب والفضة على حد سواء تلك ينهال عليها الذهب ومع هذا لم ترتفع اسعار الحاجيات على تلك النسبة فالحنطة لم ترتفع الا لانفصال الولايات المتحدة والسكريات اسعارها لكثرة انتشار زراعة الشوندر وقبل فتح برزخ السويس وتسهيل طرق الملاحة لم ترتفع اسعار الشاي وكثر محصول الحديد وخف سعره ولكن كثر الطلب عليه بسرعة وزادت اسعار الفحم والجلد زيادة فاحشة وكان من نتائج حرب النمسا وبروسيا ارتفاع الاجور كما كان من نتائج حرب فرنسا والمانيا ان صرف فيها مباشرة او بالواسطة ٥ مليار فرنك ثم انشئت في الولايات المتحدة والنمسا وروسيا الوف من الكيلومترات من الخطوط الحديدية . وكان من امر الغرامة الحربية التي اخذتها المانيا من فرنسا ان زادت الحركة في المانيا زيادة عظمى وكانت النمسا قد دخلت في جميع ضروب المضاربات وفرنسا تحتاج الى المال وانكلترا تحتاج النقود لكثرة ما اصدرت منها الى خارج بلادها فحدثت فيها الازمة سنة ١٨٧٥ وبها نزلت الاسعار وهكذا ظل نزول الاسعار مطرداً منذ سنة ١٨٦٣ ما خلا بعض الاحوال القليلة ومنذ ذلك الحين لم يحدث من الحروب المهمة سوى الحرب الروسي العثماني الذي انفقت فيه نفقات هائلة ولكن وسائط النقل ودرائع الانتفاع كثرت ونمت ونزلت اسعار الحبوب بورود ملايين اردب من حنطة الولايات المتحدة وكندا والهند وروسيا ثم حدثت حرب الترنسفال التي انفقت فيها عدة مليارات من الفرنكات فاحدثت الاسعار الصعود ثم حدثت الحرب الروسية اليابانية فانفق فيها بضعة ملايين من مليارات الفرنكات ومن جملة الاسباب في ارتفاع الاسعار فتح مواني

لوسقيانيا التي كان من حظها سنة ١٩١٣ ان [illegible] نقصها من ١٠٠٠٠٠ رأس الى ٥٠٠٠ [illegible] وكثر الطلب على الصوف ولذلك زاد محصول الحرير والطلب عليه ومع تكاثر الناس والطلب على الحنطة كان محصول الذهب واحداً بالنسبة لها ، والقمح يزيد الى الذهب على زيادة محصول الفضة بعد الاكتشاف لم يكن السبب في ارتفاع الاسعار الى كثرته اقل من ترقي ساعات العمل الصناعي والتجارة والزراعة وان محصول الذهب بالنسبة لمجموع صناعة العالم التجارية ضئيلة جداً

ما يخرج من المعادن من انواع الصناعات والمصنوعات ، وما يخرج من المزارع من انواع الغلات والثمرات اكثر بكثير مما يخرج من ركاز الذهب وإذا حسبنا مجموع ما يخرجه سكان الارض وهم الف وخمسمائة مليون لا يعد محصول الذهب شيئاً في جانبه لانه لا يكون واحداً في المائة من مجموع المال العام وحاصلاته ان يحصل من الذهب لا يعادل نحو نصفه فان محصول الذهب في مدة [illegible] الى اليوم ٩ مليار ريال [illegible] موجود في المصارف [illegible] اكثر من ٦ مليارات ونصف مليار من المسكوكات والنصف الآخر من محصول الذهب حلي او استعمل في بعض الصناعات واختلف الاحصائيون فيما تستغرقه الصناعات من الذهب ولا يجاوز [illegible] النصف من محصوله ولا ينقص عن الثلث الا قليلاً . وخلاصة القول [illegible] صاحب هذه المقالة ١ ان زيادة محصول الذهب [illegible] لا يكون من زيادة محصول الصناعات الرئيسية ٢ ان المخرج من الذهب ليس الا نسبة صغيرة ٣ ان زيادة المخرج من الذهب [illegible] الطلب [illegible] يجاوز العرض على الطلب ٤ ان زيادة المخرج من الذهب في السنين الاخيرة لم يكن له ادنى تأثير في ارتفاع اسعار بعض البضائع ٥ ان [illegible] الطريقة [illegible] لا يخلون من مراقبة الوقائع .

الشيوخ في اوربا

احصى احد علماء الالمان عدد الشيوخ في اوربا الذين بلغوا المائة من العمر فوجدهم ٧٠٠٠ ووجد من احصائه ان اكثر البلاد التي يوجد بها من هذا القبيل في البلقان [illegible] عددهم ٥٠٠٠ من الستة الآلاف المذكورين .

ويوجد من كل مجموع هؤلاء الشيوخ ٢٨٨٣ بلغاريين و ١٠٧٤ رومانيين و ٥٧٣ صربيين و ٤١٠ اسبانيين و ٢١٣ فرنسويين و ١٩٧ ايطاليين و ١٣٠ نمسويين ومجريين

و٧٢ انكليزياً و ٨٩ روسيين و٢٧ ايطاليين و ٢٢ [illegible] و ٢٠ اسوجيين و ٥ بلجيكيين
و ٢ اميركيين

هبات الاميركيين

لما [illegible] بيان هبات [illegible] التي وهبها المحسنون الاميركيون في سبيل الخير والنفع العام في سنة ١٩٢١ [illegible] اعلن في ختام هذه السنة [illegible] دولار وهو اعظم مبلغ وهب في سنة واحدة في اميركا او في [illegible] ولكن [illegible] في مقدار المال المهدى والمحسن [illegible] في هذه السنة فوق الاربعين مليون دولار [illegible] ملايين و ثمانية وعشرين الفاً.

[illegible] في اميركا [illegible] هبات المحسنين [illegible] المعاهد الطبية ومعاهد [illegible] والمستشفيات والملاجئ [illegible] من هذه [illegible] كل سنة [illegible] من [illegible] في سبيل [illegible] والشاحين [illegible] الحكومة [illegible] من هذه [illegible] والعميان والمقعدين والايتام [illegible] في كل جهة [illegible] علك ما يبذل في سبيل [illegible] ومعاهد [illegible] المشترين ومساعدة رجال [illegible] يدل على محبة صحيحة [illegible] والنفع العام.

[illegible] معظم الناس [illegible] كبار المحسنين امر هين [illegible] المال موجوداً [illegible] هذا التصور لان بذل [illegible] من [illegible] حين يقصد [illegible] به محكمة [illegible] مخصوصين من الرجال [illegible] ومعظم المحسنين [illegible]

[illegible] سبيل الحكمة.

يؤثر عن اندرو كرنجي قوله ان [illegible] الرجل الذي يموت [illegible] [illegible] الى انه عامل على انفاق كل ثروته قبل وفاته [illegible] محسناً [illegible] كرنجي الى العمل بمنطوق هذه العبارة فبذل كل ثروته [illegible] دون ان يحتفظ منها بشيء . وهو الآن يقيم في احد الملاجئ التي [illegible] بقية ايامه بسلام . ومثله [illegible] هو الدكتور [illegible] من [illegible] [illegible] الذي وهب في هذه السنة آخر ما كان باقياً لديه [illegible]

ولكن المذكورين [illegible] لا يعدون من كبار المحسنين سنة [illegible] وان تكن [illegible] كبيرة . بل يرد في المقام الثاني بعد كرنجي الدكتور صموئيل [illegible] احد اعضاء [illegible] المجلس [illegible] الذي وهب ثروة لا تقل عن عشرة ملايين دولار [illegible] في بلاد الغرب . وتخلى عن جميع [illegible] التي كانت له [illegible] الاميركية . وان في مثل الدكتور [illegible] و[illegible] كرنجي [illegible] اكبر برهان على استحقاق الآخرين وعظم [illegible] ومقدار [illegible] الحوائج . الاقل منهم حظاً .

ومن نوع الهبات التي تناولتها [illegible] سنة [illegible] ان [illegible] ثروتها [illegible] وقفت ثروتها البالغة خمسة ملايين دولار [illegible] [illegible] حتى [illegible] [illegible] وهو الوحيد من نوعه في هذه البلاد .

ومنها ايضاً [illegible] احد [illegible] [illegible] او الطاعون الابيض [illegible] حتى الآن [illegible] ملايين دولار وهو [illegible] ثروته بدون حساب في هذه السبيل . [illegible] هو ان اخاه توفي [illegible] اولاً ثم [illegible] توفي ابنه فكان له [illegible] على مقاومة المرض [illegible] زيادة على الباعث الانساني العمومي .

ومنها ايضاً ان الصحافي الاميركي الشهير جوزف بولتزر صاحب جريدة [illegible] الاميركية الذي توفي هذه السنة خصص [illegible] دولار [illegible] جامعة كولمبيا . وقد [illegible] الا انه [illegible] الرجال الاميركيين [illegible] وكان قوة [illegible] في السياسة ومن اكبر قادة الرأي العام على الرغم من ابتلائه بالعمى في العشرين سنة الاخيرة من حياته

اما اعظم هبات هذه السنة وهي التي تفوق قيمتها المليون ونصف المليون على اختلاف غاياتها الخيرية والعلمية والتهذيبية فبيانها كما يأتي

اندرو كرنجي	٤٠٧١١٣٢٠
الدكتور صموئيل بالا	١٠٠٠٠٠٠٠
السيدة ماري تروتر شامبيال	٥٠٠٠٠٠٠
بيتر بنت بريغهام	٥٠٠٠٠٠٠
جيمس باتن	٤٠٠٠٠٠٠
مشل فالنتين	٢٥٥٩٥١٤
جون د. روكفلر	٣٨٢٠٠٠٠
جون م. بورك	٣٠٠٠٠٠٠
وليم برايور	٣٠٠٠٠٠٠
الآنسة كاترن وعشادي بوسيتر	٢٠٠٠٠٠٠
جوزف بوليتزر	٢٠٠٠٠٠٠
القائد ت. كوفان	٢٠٠٠٠٠٠
السيدة روسل ساج	١٥٠٠٠٠٠
جورج كلايتون	١٥٠٠٠٠٠

المرأة في الولايات المتحدة

كتب البارون دستورنال دي كونستان من اعضاء مجلس الشيوخ في فرنسا مشاهداته في الولايات المتحدة فقال ان مسألة التربية المشتركة في الولايات المتحدة اي تربية الشبان مع الشابات قد حلّ اشكالها في ولايات الغرب اما في ولايات الشرق فعند أخذوا يتناقشون فيها وذكر مرة في كليات الشرق من امتزاج البنين بالبنات في المدارس العالية تراهم يتعلمون ويلعبون ويتناضون معاً والفتيات لا كن خاصة لهم كالفتيات بحيث ترى ربات الجمال يعملن فلا يخفن الهواء ولا البرد ولا الحر ولا يعيبون الرجال وما فقط تجمع بعد الرتكب او تتيجة أثبت

ولقد كان يخامر خاطري واما أرى اولئك الفتيان والفتيات يتراكضن و يتدارسن ويتدوكين مرارهم ثم بدا لي بعد الاختبار ان هذه التربية هي آكد الطرق الى العفة وان استعمال الحرية احسن ذريعة واتم نطاق وان فتيان الفرنسيس يخطئون اذا

وعلموا ان هذا نوع من التربية الاميركية لا يجوز بحال [illegible] ولسنا [illegible] كثيرة: فالرجل [illegible] عقله [illegible] في امورها واكثرهم لا يعرفون عنها [illegible] ومناهجهم [illegible] الخاص في كل مكان [illegible] المستطاع لا [illegible] عن حقائق العالم التي هم

وقطاعها في [illegible] ولا سيما في المدن [illegible] من امور كثيرة [illegible] الطرف [illegible] كان من رأيي في صحة المرأة الاميركية والمرأة الاوربية [illegible] من ذلك اشياء من [illegible] المرأة [illegible] الامم الاوربية [illegible] في [illegible] ولا تركها [illegible] وحدها [illegible] في [illegible] المرأة في [illegible] الفاسدة من اخلاق الرجل الذين يجب ان يتعلموا منها [illegible] لا صلاح [illegible] القانون [illegible] على هذه الاخلاق التي يجب تحسينها على كل شيء

وقالت لي احداهن [illegible] ان المرأة الاميركية سيدة اكثر من المرأة الاوربية فان زوجها [illegible] لا [illegible] في حياته كما [illegible] الرجل في زوجته او ابنته فالزوج الانكليزي [illegible] امرأة والمرأة الاميركية [illegible] زوجها [illegible] المرأة الفرنسوية [illegible] مع زوجها [illegible] كتف

اما المرأة في فرنسا ولا سيما في البلاد التي لا [illegible] فيها [illegible] مسقط رأسي [illegible] في [illegible] كثيرة من [illegible] الرجل والمرأة [illegible] الرجل [illegible] في كل [illegible] الاعمال فهي [illegible] زوجها [illegible] الطعام وتوقظ الاجير [illegible] الثياب [illegible] الاحذية [illegible] زوجها [illegible] في المزرعة [illegible] الطبخ والخبز والغسل [illegible] الاطفال [illegible] الاولاد [illegible] الى المدرسة وتصلح الثياب وتغسلها وتكويها [illegible] وتقدم الطعام [illegible] زوجها [illegible] عليها الا من [illegible] والقليل [illegible] وهي [illegible] حسب [illegible] في هذه [illegible] من لا يعرفون الكتابة [illegible] نرى المرأة لا [illegible] هذا [illegible] وتدخل [illegible] في [illegible] كلها [illegible] وهي [illegible] ومنه [illegible] فيه

والشك لا أرى هذه المرأة تطالب بمثل ما يطالب به غيرها من نساء اميركا وانكلترا من حق الانتخاب لان القانون وضعها موضعها اللائق بها

اقول هذا واما القوم من استعملوا الشدة في انكلترا مع النساء المطالبات بحقوق الانتخاب فوضعوا المرأة في طبقة احط من طبقات الانسانية اما في الولايات المتحدة فلم يرتكب احط الساسة فيها خطأهم مع النساء كما ارتكب احرار الانكليز حتى ان الرئيس روزفلت نفسه القائل بالشدة لم يقاوم المرأة في وقت من الاوقات وطالبها بالحسنى كل الحق

وان مسألة تصويت النساء تحل عقدة بعد اخرى في الولايات المتحدة وما الذين يضحكون اليوم من مطالبة النساء بهذا الحق الا اناس سيضحك منهم غداً وهكذا كان حال كل المدافعين عن المطالب الشريفة وجميع المقدمين والمخترعين ضحك الناس منهم وهزأوا بهم ثم اخذوا بعد ذلك يبجلونهم ويقدسونهم وقد نجح النساء في الولايات المتحدة باشتراكهن في الانتخابات البلدية حتى ان منهن رئيسات في بعض البلديات كما هن امهات صالحات ويشاركن الرجال في الاقرار على ميزانيات المعارف وانتخاب المعلمين للمدارس او اعضاء لدور الكتب دع عنك من دخل منهن في التعليم وادارة المدارس وغرف التجارة والزراعة وقد كان النساء الاميركيات يد طولى في تحرير الزنوج ثم عاد الرجال فاضطهدوهن واخرجوهن من دائرة العمل في انهاض بلادهن على نحو ما يخرج الجناة والمجانين من الآن لا ينقص الا مشاركة الرجل فلا يكتفين بالنفوذ بل يردن العمل بل العمل مباشرة . وقد ثبت لي ان النساء يتمتعن في الانتخاب في المدن الداخلية حيث المرأة هي صاحبة الامر والنهي في منزلها لا حيث النساء [illegible] الا [illegible] وطالبها كما هو الحال في سان فرنسيسكو ولولا النساء في هذه الولاية لاشتعلت جذوة الحرب بين الولايات المتحدة واليابان ولكنهن يطالبن من تعالي الرجال ويسعدنهم الى طلب التعقل في كل حال

المدارس الابتدائية في اوستراليا

اوستراليا او هولاندة الجديدة جزيرة كبرى قائمة في المحيط الكبير وهي من اهم المستعمرات الانكليزية سكانها زهاء اربعة ملايين نصفهم من الاوربيين جاؤها لاستثمار خيراتها من معادن الذهب والفحم والتوفر في تربتها الطينية ومساحتها [illegible] هي ٨٦٢١٥٦٧٣ كيلو متراً تنقسم الى عدة ولايات وتعد هذه الجزيرة احدى قارات

العالم الخمس وقد كتبت احدى العقائل فيها بحثاً في مجلة مستندات الترقي الباريزية تصف مدارسها الابتدائية اللادينية التي تقتصر على تعليم العلوم فقط فقالت ان انتظام التعليم الابتدائي في اوستراليا مبدأين التعليم الاجباري والمجاني

وقد كان عدد من دخلوا المدارس العامة في السنة الماضية من الاولاد ٧٢٨٠٠٠ ولد ومجموع ما تنفقه ولايات هذه الجزيرة في التعليم ٢٥ مليون فرنك

ولئن كانت المواد الجوهرية في التعليم الابتدائي الجيد موجودة ثمت منذ زمن طويل الا ان مدارس حدائق الاطفال لم تدخل الا في العهد الاخير وكذلك مدارس تعليم البالغين . كان التعليم الابتدائي في مدارس اوستراليا دهراً طويلاً لا دخل للدين فيه بتة ورأى الشرع هناك بالنظر لكثرة المذاهب الدينية انه ليس من الحكمة ادخال مسائل الدين ومناقشاته في المدرسة وان غايتها يجب ان توقف بحاجات التعليم والتربية وليس في البلاد غير ولاية غاليا الجديدة في الجنوب شذت عن هذه القاعدة منذ زمن بعيد وادخلت الى مدارسها تعليم التوراة نزعة في تعليمها مرة لا يشعر بالتشيع لمذهب خاص من مذاهب النصرانية ومنذ زمن غير بعيد حذت حذوها ايضاً ولايتان اقل مكانة من تلك وهما ولاية اوستراليا الغربية وولاية تاسمانيا فاخذتا تقرآن في مدارسهما شيئاً من كتب الدين بيد ان الولايات الراقية من حيث الصناعة والعلم مثل ولاية فيكتوريا واوستراليا الجنوبية وكنسلاندا قد احتفظن كل الاحتفاظ بمبدإ المدارس العلمانية .

ولم يبرح ولاة الامور ولا سيما في فيكتوريا يحرصون على تبرئة المدارس من كل جدل ديني ويظهرون فضل هذه الطريقة في تنشئة اخلاق الاولاد ويبينون ايضاً من العدول عن هذا المبدإ الذي ظهرت ثمراته . وشعار مدارس ولاية فيكتوريا في التعليم : « الاجبار والمجانية والعلمانية » ومعلوم ان الاجبار المدرسي مناف للتعليم الديني الاجباري لان هذا ربما مس العواطف الدينية في الاولاد او في اهليهم ممن قد تكون عقائدهم مخالفة لما يلقن اولادهم في المدارس

اما الكنائس فانها مخالفة هذا المبدإ وهي بوجه الاجمال تناقض مبدأ التعليم اللاديني ولا سيما الكنائس البروتستانتية فانها تطالب بادخال تعليم التوراة على مثال ولاية غاليا الجديدة في الجنوب وطالما حاولت نيل ذلك فكانت الاكثرية في جانب المدارس العلمانية اما الكنيسة الكاثوليكية فانها تفضل ان يكون التعليم دينيا محضا من

ان تعلم في المدارس التوراة فقط في الطريقة الوسطى ويؤكد ان تؤسس مدارس لا [illegible] خاصة [illegible] تعليماً دينياً يخالف مذهب الحكومة والمعلمين والطبيعيون منهم لا يقولون بتعليم ديني ولا باقامة شيء من الشعائر وقد سمحت حكومة فكتوريا للآباء والتلامذة ان يعلموا اولادهم تعليماً دينياً بواسطة قسيسين من مذهبهم وذلك بعد انتهاء الدروس النظامية او قبلها وليست قراءة التوراة اجبارية حتى في مدارس الولايات التي تعلم الدين

وفي الجملة ان من ولايات اوستراليا من لا تلتزم الخطة اللادينية في التعليم ومنها من قبلت بتعليم التوراة مع سائر العلوم ولكل من المعلمين انصار وقد اثر سبب تربية ارواح الاولاد . ويقول خصوم التعليم اللاديني في اوستراليا ان حالة الاخلاق الشبية في ولاية فكتوريا انحط مما هي في سائر الولايات التي تعلم فيها التوراة ويقولون بان احدى دور توليد النساء في ملبورن كان فيها نصف الامهات الشابات من سن ١٥ الى ٢٠ وبعضهن من سن ١٢ الى ١٣ او ١٤ ويجيبهم خصومهم على ذلك بان امثال هذه الدور لتوليد لا تقبل الا من كن ابكاراً من البنات ولذلك كان عدد عظيم ممن يلدون من النساء من شابات [illegible]

وقال الاستاذ آدم من كلية ملبورن ان عدد الجرائم قد تضاعف في فرنسا من سنة ١٨٦٦ الى ١٨٩٦ بسبب المدارس اللادينية [illegible] التعليم الديني في خلال نصف هذه المدة كان اجبارياً في مدارس الفرنسيس وقد ادعى احد القائلين بالتربية اللادينية ان مدارس ولاية غاليا الجديدة [illegible] مدارسها الدينية اكثر من مدارس ولاية فكتوريا اللادينية وان عدد الجرائم والخطايا اكثر في الولاية الاخيرة من الولاية الاولى بل انه لا يجب ان نقول ان الاحصاء الذي يوردونه تأييداً لمذهبهم لا ينطبق مع حقيقة الواقع لان من الولايات ما زاد عدد مجرميها اكثر من غيرها و[illegible] حرمانها لا [illegible] التعليم الديني منها وحقيقة ان عدد الجرائم كان هكذا سنة ١٩٠٨

ولايات	التعليم فيها لاديني	ولايات	ذات تعليم ديني
٢٤٧	كوينسلاندا	١٨٦	اوستراليا الغربية
٢١٩	فكتوريا	٣٢٠	غاليا الجديدة الجنوبية
١٢٩	اوستراليا الجنوبية	٢٢٣	تسمانيا

وقد كان معدل الولادات غير الشرعية سنة ١٩٠٧ [illegible] في المائة في انكلترا في حين كان [illegible] في المائة في اسكتلندا وبلاد الغال من بريطانيا وكانت فيها من سنة ١٩٠١ الى ١٩٠٥ تعدل كل الف امرأة غير متزوجة او عزبة منها من ١٥ الى ٤٥ [illegible] ولادة غير شرعية في حين كانت [illegible] في كل الف [illegible] المانيا كلها [illegible] معدل الولادات غير الشرعية [illegible] في المائة وكان معدل الولادات [illegible] في المائة [illegible] في المائة

وفي هذه النشرات [illegible] في بعض البلاد التي ذكرناها ولا سيما في فرنسا [illegible] المرء ان [illegible] الى اية درجة [illegible] الاحصاءات [illegible] طرق مقاومة الحبل [illegible] وما هذه الاحصاءات في الحقيقة [illegible] ولا [illegible] الا الى [illegible] كثيرا من الولادات غير الشرعية [illegible] ولا يصل الى [illegible] من [illegible]

[illegible] الاحصاءات [illegible] كانت مشكلة الاخلاق [illegible] الولادات التي [illegible] في [illegible] ولكن هذه المشكلة [illegible] من [illegible] الى [illegible] الاحصاءات [illegible]

هذا [illegible] ولا [illegible] الطرق [illegible] ولا سيما في هذه [illegible] الشرق [illegible]

مدينة في حديقة

[illegible] الآن في مسألة [illegible] في [illegible] مدينة حديقة [illegible] والنشء من الاولاد [illegible] هذه المدينة [illegible] اليوم [illegible] اربعين سنة [illegible] الانكليزية [illegible] من [illegible] هذه المدينة الحديقة [illegible]

الاولاد على حياة الزراعة ولا سيما في سهول كندا الفسيحة وستقسم المدينة الى ٢٨ داراً كل منها تؤوي ٣٠ ولداً ولكل دار حديقة وحقل يشتغل فيه الاولاد يفصل كل بيت عن جاره وهناك مستشفى وحوض لتربية الاسماك .

وقد سبقت المانيا فانشأت هذا النوع من المدن والحدائق الخارجة عن الحواضر والعواصم لتبقى هذه للاعمال والتجارة وتكون المدن الحديثة للصحة والراحة وللعود بالانسان الى الطبيعة التي فقد الانسان الاستمتاع بها لما يراه في المدن الحديثة من بنايات ذات اربع او خمس طبقات . وقد رأى القائمون بذلك من الالمان ان الاراضي في الضواحي البعيدة رخيصة لا تخضع لقانون المضاربات واشترط على كل صاحب بيت مالكاً كان او مستأجراً ان يزيد في جمال بقعته جمالاً بما يغرسه فيها من الاشجار وبما يشبه من الحدائق الانيقة ويشترط عليه ايضاً ان يبقي قطعة يغرس فيها انواع الزهور وحديقة وراء بيته يلعب فيها اولاده وقد انشأ هؤلاء المفكرون في الضواحي حمامات ومحال اللعب ومكاتب للمطالعة ومحال للسماع مجانية ودور تمثيل ومتاحف ومستوصفات مجانية وملاجئ للامهات وغير ذلك من المنشآت وكلها بلا مقابل

اللبن

معظم بلاد العرب تخرج من اللبن الحليب والزبدة والجبن وسائر ما يتفرع من اللبن صنوفاً وضروباً ولللبن تجارة واسعة تعد بالملايين وقد ساعد على نمائها عمر الزراعة بالمراعي الكثيرة والوسائط الصحية الوفيرة ولقد رأينا في اوربا فلاحاً يعيش هو واسرته من بقرة او عنزتين ولذلك امثال في هذا الشرق ايضاً ولكن المتوفرين هنا على تربية المواشي الحلوبة اقل بكثير من المتوفرين في الغرب عليها . فنجد في سويسرا ثلاثة ارباع الاراضي الزراعية مخصصة للمراعي وتقدر مساحتها بعشرين مليون هكتولتر وثمنها ٣٣٣ مليون فرنك ونصف المراعي يصرف بطبعه وسبعة ملايين هكتولتر تصرف لعمل الزبدة والجبن والباقي للحصول على الطحين اللبني والشوكولاتا باللبن . وسويسرا تصدر معظم ما تصنعه من اللبن المجمد والجبن والطحين اللبني الى البلاد الخارجية وفي سويسرا مليون ونصف مليون رأس من الماشية و ٣٦٠ الف رأس للذبح ولكثرة ما يرد عليها من الاجانب السائحين تجلب من البلاد الخارجية ٤٧ الف رأس بقر و ١٨ الفاً من الخرفان و ١٥٠ الف خنزير في السنة وهكذا الحال في فرنسا والمانيا وغيرها من البلاد فلن تكون واردات المملكة المتحدة كلها من الالبان بقدر واردات سويسرا فقط

وسويسرا بمساحتها اقل من نصف ولاية سورية و بنفوسها اقرب من نفوس القطر السوري كامل

المدارس الفرنسية

في الشرق

يستفاد من تقرير المسيو ديشانل ان عدد التلاميذ الذين تلقوا علومهم في المدارس الفرنسية في بلاد السلطنة وفي الشرق بلغ في العام المدرسي الاخير ١٠٤ آلاف منهم ٧٤ الف تلميذ في السلطنة و ٢١ الفاً و ٥٠٠ في القطر المصري و ٢٩٠٠ في اليونانية و ٣٢٥ في كريت و ٦٦٧ في قبرص و ٣٠٠٠ في بلغاريا و ٢٠٠ في رومانيا و ٢٨٠٠ في ايران

اما عدد الذين تلقوا العلوم العالية فبلغ ٧٥٢ والعلوم التجارية وغيرها ٦٩٩٥ والعلوم الثانوية ٩٩٤٣ والعلوم الابتدائية ٩١ الفاً و ٤٨٥

الطلاق في يابان

يزداد الطلاق في الغرب اليوم بعد اليوم ولكنه في الشرق اكثر ولاسيما في الشرق الاقصى فقد ذكرت احدى مجلات يابان انه كان سنة ١٨٧٠ بالنسبة للزواج ٨٤ في كل عشرة آلاف فتجاوز معدله اليوم ٣٥٠ في العشرة آلاف والمرأة هي التي تطلب في الغالب طلاقها وذلك بفضل التربية والتعليم فقد ارتقت المرأة اليابانية وشعرت بحب الحرية حتى انها لا ترى ان تقيد بزوج قيداً ابدياً . ولو تعلمت ماينفعها في بعلها واسرتها على نسبة ماينفعها في توسيع عقلها لما آثرت على عيش الاسرة حياة غيرها وليس السبب في طلب المرأة اليابانية الطلاق سوء الاخلاق وخيانة الزوج والزوجة بل توسع المرأة في تقاضي حقوقها . قالت وقد اختلفوا في الغرب بامر الطلاق فالكاثوليك يحرمون من يأتيه ويرون ان عقد الزواج لا ينفصم الا بالموت والبروتستانت يحلونه ولكن بشروط والملحدون يعقدون ويحلون على هواهم ويرى بعض الاجتماعيين ان الطلاق هو الدواء الوحيد الشافي من اصعب امراض المجتمع ونحن نقول . قاله اسلافنا ان ابغض الحلال الى الله الطلاق

براميل القمامات

تنفق مدينة باريز براميل لجميع البيوت والمحال يلقي فيها الباريزيون القمامات والكناسات التي يكنسونها من دورهم وشوارعهم يسمونها Poubelles نسبة لاحد

[illegible] الحيوانات [illegible] ومن العجيب ان الافرنج [illegible] [illegible] ولكن [illegible] اليه ان عشرة آلاف رجل والنساء [illegible] كل يوم في البحث في هذه العلب والبراميل [illegible] [illegible] في اماكن [illegible] شديد [illegible] [illegible] منها فضلات [illegible] وهكذا [illegible] anoline الذي لم يكن معروفاً منذ عشر سنين [illegible] من المواد [illegible] وغيرها ومن [illegible] وكذلك [illegible] في قطع الزجاج التي [illegible] من هذه [illegible] ويصنعون منها [illegible] بلاط [illegible] الناس في [illegible] من هذه [illegible] في بعض [illegible] و[illegible] [illegible] الزجاج المكسور [illegible] والاحذية [illegible] [illegible] والاقفال [illegible]

وقد جرت بعض مدن اميركا على هذه القاعدة في [illegible] فاخذت [illegible] هذه [illegible] في [illegible] الارض [illegible] الافرنج في هذه [illegible] الى مواد [illegible] الذي [illegible] [illegible] وهذا [illegible] القرون

[illegible] في [illegible]

انشئ هذا [illegible] سنة ١٩٠٣ وهو يكاد يكفي حاجات المدينة [illegible] كل يوم [illegible] كلها بواسطة ادوات [illegible] حيث [illegible] وقد كان [illegible] على [illegible] الناس [illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] الاخرى